محمد جعفر

هذيان

نواقيس القيامة

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هذيان

نواقيس القيامة

طبع في لبنان

هذيان
نواقيس القيامة

رواية

محمد جعفر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1124-7

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

"أوّل مرّة ناداني فيها باسم مريم لم يكن يقصد نفيي، ولكن حمايتي من محيط قاتل. كان يشتهي أن يقول نشيده عني بأقصى راحة، وكانت مريم وسيلته لفعل ذلك"

واسيني الأعرج – أنثى السراب

"– ما هي بمسرحية. إنها اعتراف، هي الحقيقة ونحن أشخاصها الحقيقيون..

– ليكن، أتحسب أن ذلك فاتني؟.. لقد رأيتك كما رأيت نفسي، ولكن من أين للجمهور أن يعرف ذلك!.."

نجيب محفوظ – أفراح القبة

أعيش اغترابا على أرض الواقع أعالجه بالكتابة، وكأن في هذا الفعل انتماء ألوذ به.. وكأن في الواقع المفترض الذي أقدمه الوصل الذي يعنيني في مقابل عالم أرفضه ويرفضني.. وأضحك، وأنا أشعر بالمرارة، ويستفزني حدّ الفجيعة عندما أقرأ تصريحا لكاتب ما يقول فيه، أنه استمتع بكتابة عمله الجديد. وهل يستمتع الإنسان عندما يضطهد في موطنه ويُطرد باتجاه المنفى.. وهل يستمتع الجندي، وقد ارتهن إلى الجندية غصباً، ثم وهو يجد نفسه يخوض غمار معركة لم يخترها ويريد أن يخرج منها بشرف.. وهل يستمتع من يداوي جراحه بِصب المزيد من الملح عليها.. وهل يستمتع كاتب ما وهو يعري نفسه ويشرّح همّه ويفضح أناه، ثم – ورغم ما يبذله ويقدمه – يكتشف أنه انتهى إلى اللاشيء، مع أنه يبقى مشدودا إلى ذلك الفعل – فعل الكتابة – بمزيد من الإصرار والعناد، وكأنه مشدود إلى قدر لعين لا فكاك منه.. ثم هل كان يستمتع "سيزيف"؟!

محمد جعفر

تنبيه

لستُ محرر هذه الصفحات، وإنما شخص آخر وصلني منه مغلف عبر البريد، تضمن مخطوطاً هو هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن، ومعه رسالة إليّ رأيتُ أن أضمنها الكتاب أيضا وبخط مرسلها تجاوزا لكل لبس يمكنه أن يقع. وأشير في الوقت نفسه أني كنت قد تجرأت ووضعت لهذا العمل عنواناً دالاً عليه بعدما كان يفتقد إلى ذلك، ثم وضعت له عناوين فرعية اعتقدت أنه كان بحاجة إليها.

كذلك رأيت أن أدلل على المخطوط بخاتمة مناسبة بعد كل تلك الحقائق التي تكشفت لي وأنا أبحث وألهث وراء صاحبه، وهي خاتمة رأيت أنها ضرورية ومفيدة حتى لا يستغلق الفهم على القارئ وحتى لا يضيع في ثنايا الوهم، وأملي أني وُفقت.

ثم لا بد أنكم تتساءلون لم اختصني هذا السيد أنا شخصيا ودون سواي بمغلفه.

تيقنوا من أن نفس السؤال كان قد تبادر إلى ذهني، وبل ظل يشغلني ويؤرقني دون أن أقف على جواب شاف عليه يقنعني ويرضيني، رغم أنيّ حاولت الوصول إلى الحقيقة عبر النبش في أكثر من اتجاه.

وها أنا أدعوكم سادتي إلى أن تقرؤوا هذا العمل، وهذا بدوري ما فعلته قبل أن أقرر نشره، فإذا انتهيتم منه أخبروني هل وجدتم الحقيقة.. الحقيقة الكاملة، أو بعضا منها؟!

محمد جعفر

رسالة من شخص مجهول

سيدي الكريم:

يمكنني القول جازماً أنه في هذا الصباح الرائق والحافل والحامل لنسمات جديدة كان لقائي بكَ أجمل ما حصل لي..

استيقظتُ من نومي مبكرا على غير العادة. راقبتُ عقارب الساعة الفسفورية على طاولة الكوميدينو ووجدتها تشير إلى السادسة صباحا تقريباً.

كنتُ وحدي في غرفتي، والتي هي في الأصل مخزن صغير للأغراض حوّلته إلى شبه غرفة ما دمتُ ككل البشر أحتاج إلى مساحة أتنفس وأختلي فيها مع وحدتي. تأملت الظلمة من حولي، ولا شيء كان هناك غير هسيس المطر وقد أخذ يتسرب عبر الصمت وبهدوء.

أنصتُّ إليه.. الجميع يضيق بالمطر إلاّ أنا، فقد ابتهجت به. أوقدتُ المصباح الساهر، وفتحت النافذة لأتنفس هواء الصباح المنعش وأستمتع بمنظره.

تذكرت أيام الطفولة المحببة، وأغنية المطر..

"يا نوّ صبّي صبّي ما تْصُبِيش عْليّا

حتى يْجِيّ حَمّو خُويا ويغَطِيني بالزَّرِبية.."

بِهبل أعدت تهجيتها وغناءها، كذلك استعدت رقصة "زوربا" واستعرتها. أقصيت خلفي كل سنين العمر المتراكمة، وأزحت عنيّ تلك اللعنة التي اجتاحتني على غرة باسم القدر. عندما تعبتُ أخذت أتأمل

مـدينتي الباهتـة والمضـببة، ولم يكـن في صـحبتها إلاّ الظلمـة السـاكنة والمطر..

قلت في خاطري أسأل: أين انتفى الوجع وكابوس كل ليلة؟!.. ثم أين راحت تكمن لي وتترصدني تلك الصور والمشاهد المشوّهة والمؤسية، التي كانت تزورني كل ليلة معربدة مانعة النوم عنيّ، فلا أنام إلاّ بعينين مسهدتين مخنوقتين!.. لقد كانت تجعل من صباحاتي، صباحات بلا طعم من شكل عينيّ المرمدتين والمؤرقتين، ومن حال جسدي المستهلك والهالك، وإن كنت الليلة قد غصت في نوم عميق لم أعتده منذ زمن طويل!

كنت قد نمت بشكل صحيّ إلى أن استيقظت، وكأن الكابوس انتفى حقاً أو كأنه أعلن هدنة ما معي، وإن كنت لا أصدق تجاوزه لي ورحيله بعيداً عنيّ، لأن تلك أمنية مستحيلة، لن أقتنع بها حتى لا تدركني المفاجأة والفاجعة ولا أصطدم بغم جديد يضعضع كل جَلَدٍ بقي لي وكل قوّة للتحمل ممكنة موجودة فيّ..

أغلقت النافذة مفكراً في العودة إلى سريري من جديد. كانت حزمة الأوراق التي ظللت عاكفا عليها ليلة البارحة لا تزال هناك مبعثرة عليه وعلى الأرض من حوله، تزاحمها بعض الكتب والروايات، وتذكرت كيف بقيت أقلب فيها إلى وقت متأخر من الليل أو هذا ما كنت أفعله كل ليلة حتى أقول أني بصدد فعل شيء ما، ما دمت منذ صباي أكره العاطلين.

تقدمتُ هذه المرّة غير مبال بأوراقي، فإذ بي أجدكَ أمامي فجأة. كنتَ تركن على جانب خزنة الملابس غير مبال. تلبس منامتي الوحيدة الزرقاء بلون السماء دون أن تسألني هل أعيرك إياها. شعر رأسك

مرجل بعناية وبتسريحة تشبه تلك التي كنت أحبذها أيام كان لي شعر. رجلاك حافيتان وهذا ما لا أطيقه خصوصا خلال الأيام الباردة فقد أصاب بحمى أخشاها أو قد تتصلب أطرافي بفعل البرودة غير المحببة. كذلك كنت تدخن سيجارة "ليجاند" وتنفث سُمَّها في الغرفة وكأنك لا تعرف أني لا أطيق المدخنين لإصابتي بالحساسية وبالاختناق.

تسمرتُ مكاني وأخرِستُ من المفاجأة. تلفتُ يميناً وشمالاً ومن حولي، وتساءلت من أين يمكن أن تكون قد دخلتَ وطلعتَ عليّ، واقتنعتُ أخيراً وأنا أتشرب بعض الطمأنينة أنك كنت مجرد عابر اخترق ذهني المتعب والمرهق والآيل إلى التلف والضياع.

ولأني كنتُ أسير إلى التلف والضياع وبشكل مطرد وسريع لم يتسن لي الوقت للتفكير أو التمحيص. ودون أن أدير الأمر كثيرا في رأسي قررت أن أسلمك مخطوطي الذي صار الآن بين يديك، ما دمتَ اللحظة بصدد قراءة رسالتي، ولا أدري صدقا أيّنا اهتدى إلى الآخر أو لِم تصورت أن هذا المخطوط يعنيك، وإن كنتَ أنتَ قد ترى وتقول بغير ذلك. ثم لا أظن أنك ستجبرني أن أقصي هذه الفكرة عن ذهني بعدما سكنتني واقتنعتُ بها، وأنا لن أقبل أن أطوّح بها بعيدا عني.

ولعل الآخرين يصدقونك ويكذبون مزاعمي، فهم يفعلون ذلك منذ الأزل. يصدقون دائما أصحاب الهالات، حتى وإن كانت هالاتهم مصطنعة ومفبركة ويكذّبون ما عداهم ما دام لا حول لهم ولا سلطان.

ودافعي في قول ذلك ما أعرفه وأتصوره بحكم خبرتي وعملي وانشغالاتي، كما أني مستعد وفي مجال الأدب أن أقدم لك العديد من الأسماء وأطيح بها على مرآك كاشفا النقاب عن فضائح وأسرار ما

دريتَ أنت أنها ممكنة بحال من الأحوال، أما أصحابها فيباشرون حياتهم اليوم بشكل طبيعي وكأن لا شيء حصل أو يحصل.

ثِق مثلا أن ذلك الصديق الذي كنت تعتقده مقرباً جدا منك، والذي أراه أنا مجرد منتحل صفات وضيع، فار من اسمه الحقيقي كالفار من محكومية أو سجن هو واحد منهم.

وإنّي لأتساءل كيف لم يساورك الشك بشأنه إلى الآن، وكيف لم تسأل في يوم من الأيام هل يكون هو كاتب تلك الروايات الموّقعة باسمه ذلك الذي اسمه "سمير قسيمي"، أو يكون مجرد اسم مزيف يوقع على عمل سواه..

اسأله وأنظر كيف سيجيبكَ، وإن كنتُ أتوقع أنه سيجبن عند مواجهتك ولن تحصل معه على شيء ذي بال، وأنه سيخذلك ما دامت الصفقة مستمرة بينه وبين مورده من الروايات، ثم أنه لا شيء يهم أو تلك هي الخلاصة التي انتهيت إليها من خلال هذه الحياة الكريهة.

إذن كم تُراكَ تقبل أن تمنحني لقاء عملي هذا الذي صار الآن بين يديك إذا ما رأيت أن تنشره حاملاً اسمك وتوقيعك؟!

بالله عليك، لا تستغرب سؤالي المباشر والصريح ولا تستعجبه، فأنا عزمت أن أختصر الطريق وأدفع بالأمر إلى الصميم مباشرة، وإن كنت أساومك كمراب حقير فلأني على بينة من أمر أعمالك السابقة وعلى اطلاع كاف بحكايتها، وكذلك كنت على اطلاع وعلى علم بأمور كثيرة تخصك ولا يعلمها أحد عنك.

وكمثال على ذلك يمكنني أن أجزم أنك الآن تفترش سريرك وحولك فوضاك من الكتب والأوراق، بينما أنت مستغرق في قراءة

رسالتي ومخطوطي، ثم أليس هذا هو حالك حقا كلما باشرت أمراً ما له علاقة بالكتابة أو القراءة..

ألم أقل لك أني على دراية كاملة بأمرك وقد أعلم عنك ما لا تدركه أنت عن نفسك وكأني فيك صوت الضمير الذي لا يغفل أو ملكاك اللذان يقيدان كل ما يبدر عنك ولا يغفلان عن أدنى أمر!

.. ثم والحالة هذه هل تسمح لي بأن أصارحك بأمر لا يجرؤ أحد أن يواجهك به، وهو أن الأعمال التي سبق لك نشرها مقابل سيولة ضخمة لم تكن ناجحة بالمرّة، وبالمناسبة أنا مستعد أن أقدم لك عرضاً آخر لن يقدمه لك سواي..

أنت لست مضطراً أن تدفع لي قبل أن يصدر عملي وترى كيف يتلقفه جمهور القراء وإن كنت أُقَدِر أنا بأي لغة كتب، وأتصور أنه سينتشلك من الوحلة التي تغرق فيها الآن وقد صرت رهين فترة تخبط دامت طويلا، وثق أنه سينقلك سريعا إلى الواجهة، على أني لن أسمح لك بأن تفاوضني وتساومني فيه وتبخسني قدره، ولن أرضى إلاّ بأن تنصفني فيه..

أنا بالطبع أمازحك سيدي، وأراني تماديت كثيراً، وربما كان مزاحي ثقيلاً وفجاً. لكن هل لك أن تتحملني قليلاً؟

لقد توسمت فيك أن تفهمني، ثم أني لا أقدر إلاّ أن أمنحك عملي وجهدي حباً فيك وكرماً، ويسعدني جداً ويشرفني أن يحمل قريباً اسمك وتوقيعك على أن يبقى الأمر سراً بيننا فأنا لا ثقة لي في سواك، ثم لو قيد لك أن تكون أنثى جميلة لاستوعب الناس فِعلتي وبادرتي وسرّ اختصاصي لها بهذه المنحة العظيمة، ولقالوا حينها إنه موّله وعاشق.

لكن أن يكتب رجل لرجل خطاباً، ثم يهبه إبداعاً اجتهد في رسمه وتشكيله، وكان وكأنه ينحته على صخر فهذا ما لن يستوعبه أحد.. سيرون أن هناك إسرافا ما.. سراً غامضاً.. ولن يهنأ لهم بال، وقد يخوض آخرون في تفصيل الأمر على هواهم وينحون به إلى جميع النواحي غير تلك التي قصدت، حتى أني أتصور أن هناك من هو جاهز ليصمني بالشذوذ مثلاً. فكلٌ حسب هواه، وأنا لا أثق بأهواء الناس وأعرف شطحاتهم جيداً.

كانوا يرونني من قبل نزقاً وممسوساً، وكانوا دائما يتحاشونني ويتجنبون الجلوس إلي أو مناقشة أفكاري، على أنه حصل وحدث أن كان هناك استثناء لي في هذه الحياة. لقد كانت هناك امرأة أحبتني. جميلة تصغرني بسنوات عديدة. حبيبة حالمة تهوى التقبيل بفم مزموم قبلة العصفور، ثم لا أدري كيف تلاشت الأحضان التي طوّقتنا، وكيف خفتت نارها وتبدّلت إلى جليد صاقع.. حملت حقائبها ذات موسم ورحلت دون إنذار ودون أن تضطر إلى قول كلمة.. تفجّعت فيها وهي تغرب صوب البحر بينما أنا رابض مشدود إلى بركتي الآسنة والعفنة.. اِلتمعت عيناي بكل حقد الدنيا بعد ذلك، اعترفُ..

كنت لا أزال في حاجة إليها وإلى وجودها بجانبي، فهل كنت لأغفر لها!

ثم هل يُسأل العاشق عن شططه!

"دارها بيديّه يحلّها بِسْنانَه"..

كل شيء كان مبرراً في نظري حينها، وكم وقفت بعد ذلك على قبرها وأمام شاهدة تحمل اسمها أبكيها وأنعيها وأندبها وأندب حظي فيها!..

كانت قد اختارت أن تغامر صوب البحر، وكان ذلك من حقها ما دامت كانت ترى أن الأحلام من هناك تناديها.. لقد فهمتُ متأخراً وبعد فوات الأوان أنها كانت قد تعبت مني، وفضلت الرحيل على أن تبقى معي وتشهد سقوط أيقونتي لديها فتكرهني، وإن كنت إلى اليوم أحاول أن أتأقلم مع الوضع وأسعى لأتحمّل حالي وحيداً من جديد. وأنا إذ أذكرها على هذا الفجر البارد، أشعر بالعطش لكل الأشياء الجميلة التي حصلت ولم تحصل بيننا!

لقد كانت مثل كثيرين مخلوقة لها طموحات على عكسي أنا الذي لم أعرف الطموح يوماً أو بالكاد صار لي واحد بعد هجرانها لي، وهو أن أكتبها.. على أن أي كاتب كان سيظل يعتقد أن الكتابة هي أفضل شيء حصل له في هذه الحياة، وأنه يكتب ليعيش، وهذا ما لم يحصل معي أنا، فقد كنت دخيلاً على عالم الأدب، ولا أذكر أني حملت القلم إلاّ لطارئ حصل معي ولظرف أملته الضرورة، وأجدني الآن أعيد التشكيك في الكتابة كخيار رغم ميولاتي الأدبية التي اكتشفتها ولم أكن أدري بها لديّ. ثم أنه لا يجب على المرء أن يلتفت خلفه حتى لا يتلف، وإن كان مقيداً له أن يسير إلى التلف في كل الأحوال.

لقد ولجت عالم الكتابة فاراً إليه من نفسي ومما اقترفته يداي، وكنت أطمح أن أجد فيه متنفسي وتفريغاً أتجاوز به ومن خلاله ما كان يكبلني أو يدفع بي إلى الجنون، وإن كنت شارفت اليوم أعتابه. لكن هل سيهمني حقا الطوفان وقد وصلك مخطوطي وصار بين يديك!

كان يجب أن تكون هناك وسيلة ما لتنظيم هذه الاختلالات. طريقة أخرى ممكنة للحياة. فِعل صحيح أقوم به، وأطوّق من خلاله

الفوضى المستفحلة حولي. وكنت ألتمس طريقي ولا شيء لي غير المحاولة..

والآن أدرك تماماً أني أخطأت الدرب.. فِعل الكتابة جاء لرأب صدع لا لإقامة بناء. جاء متأخراً وبعدما استفحلت الحالة.. كنت أريد ما يحررني طائرا، نورسا بحريا، لجّة أو غمامة؛ والكتابة تبدت لي كذلك إلى حين انتهيت مما كتبت تحوّلت إلى وهم، فهل كنت سأغرس برأسي كالنعام في تربتها (الكتابة) من جديد، وهل كنت لأرضى بأن أضيع في الوهم ثانية!

لقد خلصت أن الجهد الفكري أو الإبداعي لا يمكنه أن يمنحنا سلاماً داخلياً، وإن كان يمنحنا الفرصة التأمل وإعادة صياغة الحياة من حولنا.

إنه سلوى تلهينا ما دمنا نخوض الغمار غرقى بين الورقة والقلم، حتى إذا انتهينا تلقفتنا الحيرة من جديد وعادت الأسئلة القديمة وقد توالدت وتكالبت لتصير أكثر شراسة وهوساً وفجيعة، وندرك أخيراً كم كنا واهمين، وأننا كنا نسير إلى زقاق مسدود، وأننا أقحمنا أنفسنا في ورطة لا فكاك منها..

هل كانت فتاتي مطالبة بأن تفهم عليّ وتستوعب ما كنت أعانيه!..

الأكيد، لا.

لم تكن مطالبة بشيء، ثم ماذا كان سيعني لها أي شيء أقوم به. لقد كانت لها اهتماماتها الخاصة وفقط، كذلك كانت أمي تقول محتجة كلما وجدتني ألوذ بأوراقي أو عاكفا على مكتبي أكتب: "دعك من هذه الأوراق التي تتلف بصرك!"، رأفة بي وشفقة على حالي، أو هكذا كانت ترى الأمور من جهتها.

الأعور في بلد العميان ملك، لكن ما معنى أن تكون أعور في بلاد يعتقد جميع من فيها أنهم مبصرون ويملكون ناصية الحقيقة!.. لا أحسن لك حينها غير اعتزال الناس جميعاً، والعيش وحيداً في منفاك، فلا تتعاطى مع ما هو حولك أبداً، أو هذا ما انتهيت إليه أخيراً!

كم يهولني أن أراني رجلاً ماكراً وخبيثاً وقد قررت أن أضع هذه الرواية فجأة بين يديك، على أني لم أكن شريراً في يوم من الأيام رغم ما اقترفته في حياتي من آثام.

لقد كنت ولا أزال غير قادر على رفس يعسوب أو دعسه بقدمي، ولا قدرة لي إلى اليوم في أن أؤذي ذبابة. وآثامي في مجملها لم تبلغ مرةً حدّ أذية أحد، وأكاد أجزم أن أغلبها كان مسرحها خيالي الملتهب ووجداني، حيث يمكنها هناك أن تشطح وتعربد وتطلق لنفسها العنان.

لكن ما حيلتي هذه المرّة وأنا مضطر للانسحاب من هذه الحياة الكريهة!

سيدي، إن كنت أحبكَ فلأنه يجمعنا حب الأدب نفسه والرواية على وجه الخصوص، وإن أردتَ المزيد فزد على ذلك شغفي بما تبدعه. أراك دائما تقدم لهمّك وما يشغلك بصرف النظر عمّا يودّ أن يقرأه الآخرون أو ما يثيرهم في الأدب خاصة. ولعل ما يشدّني إليك أكثر أني ألتمس جوهرك من خلال أعمالك الطافحة بالصدق والتي تنتصر للالتزام وللإنسانية، وإن كنت على يقين من أن اعترافاً بمثل هذا الحجم لن يقوّض حجة من يدعي مرضي ونزقي؛ على أنهم – واعلمْ هذا جيداً– لا يثيرون حتى حنقي ولن يتمكنوا من إتلاف أعصابي ما دامت تالفة أصلاً.. ثم هل علي أن أصرّح وأقول إن الحب في ذاته نزق، وأنه لا يجب تفسيره بل عيشه!

بعد تسويد هذا العمل ظللتُ قرابة سنة كاملة متردداً في نشره غير جازم بجدواه ما دمت لا أملك أي طموح أدبي على عكس شخصك تماما.. أفلا تراني إذن، وأنا أهديه لك حباً وكرماً، أنقذك من ورطتك.. ألن يهمّك الأمر حقاً ولن يغريك وقد صرت مفلساً غير قادر على أن تتجاوز نفسك وتُقدم لقارئك شيئاً جديداً ملهماً.. أم تراك ستجد أن عملي لا يستحق وستتجاوزه استخفافاً به!

إنك حينها ستضيع على نفسك الفرصة في أن تقدم نفسك من جديد وبصورة ملهمة فيها تجديد وتجاوز لكل ما سبق لك تقديمه. وأنا هنا لا أغبط عملي بقدر ما أنظر إليه نظرة موضوعية وجادة. وكن متيقنا أن شغفي بالأدب ولو قراءة وبحكم مهنتي وبعيداً عن العواطف ودون انحياز، أعرف أين أضع جهدي وكيف أصنفه، وأتمنى أن أجدك من رأيي، وقد صرت تمر بفترة جفاف حرجة ومؤسية وقاتلة!

وفي الأخير، وعلى مطر يمارس طقسه الأزلي.. مطر يجلو مدينتي من أدرانها وخيباتها أقول.. ها هي ذاكرتي أو بعضها.. أو شيء من ذاكرة وطن يلبس ثوب امرأة لعوب..

ستؤوِّل أنت الحكاية وسيفعل سواك.. ستلبسونها مختلف الأشكال والألوان، على أني سأرضى هذه المرّة بدور المتفرج مستمتعاً باللذة التي استعصت عليّ طوال حياتي، ولن أتدخل لأحسم أي شيء، فالحقيقة لا أزال أراها في كل ذلك!..

وتقبل تحياتي، ولك مني تمنياتي بالتوفيق والنجاح.

مُخلِّصُك

المخطوط

نواقيس القيامة

قد يخطئ موعده الوقت؛

لكن لا تخلف ميعادها النواقيس..

فيما تبقى الأسباب مجهولة
انتحار فتاة يهز حي 100 سكن بمستغانم

أقدمت شابة تبلغ من العمر 27 سنة نهاية الأسبوع الفارط على وضع حدّ لحياتها، وذلك بتناولها جرعات زائدة من مواد طبية وأدوية.

ويتعلق الأمر بالمدعوّة (م.أ)، والتي وجدت داخل شقتها بحي 100 سكن جثة هامدة. وفور تلقيها خبر الوفاة فتحت مصالح الشرطة بالولاية تحقيقا في الموضوع لتحديد ملابسات الحادث، فيما أفادت تقارير أوّلية أن الضحية كانت تعاني من اضطرابات ومشاكل عائلية.

صحيفة مورستاغا

2010 – 12 – 28

مصالح الأمن تفتح تحقيقا لمعرفة ملابسات الحادثة جريمة بشعة يهتز لها حي 100 سكن بمستغانم

شهدت مدينة مستغانم جريمة بشعة ذهبت ضحيتها فتاة في السابعة والعشرين من عمرها، ويتعلق الأمر بالمدعوة (م.أ)، وقد عثر عليها جثة هامدة في شقتها بحي 100 سكن وسط المدينة.

وفيما باشرت مصالح الأمن وفور تلقيها النبأ التحقيق في ملابسات الحادثة، أكد الطبيب الشرعي أن الضحية قد تعرضت للتسمم من خلال تناولها كمية كبيرة من أدوية توصف غالبا لمرضى السرطان، كذلك أثبت تعرض الضحية لضربة مباشرة على مستوى الدماغ تسببت في حدوث نزيف داخلي عجل بالوفاة.

وتكون الضحية أيضا وحسب ما أفاد الطب الشرعي قد تعرضت إلى عملية اغتصاب بشعة قبل وبعد حدوث الوفاة، كذلك أثبت أنها كانت حامل وفي شهرها الثاني مما يضعنا أمام جريمة شنيعة تقشعر لها الأبدان، ليلوذ الجناة بفعلتهم.

جريدة مورستاغا

2010 – 12 – 30

بعد التحري والبحث
الأمن يوقف المشتبه بهم
في قضية مقتل المدعوة (م.أ)

تمكنت مصالح أمن ولاية مستغانم من إلقاء القبض على المشتبه بهم في قضية القتل العمدي، والذي راحت ضحيته سيدة بحي 100 سكن بمستغانم.

وتعود حيثيات القضية إلى الأسبوع الفارط، حين اكتشفت مصالح الأمن المدعوة (م.أ) جثة هامدة بشقتها وعليها آثار عنف واغتصاب. وفور تلقيها الخبر سارعت الشرطة الجنائية إلى تطويق مكان الجريمة وفتحت تحقيقا معمقاً لمعرفة ملابسات القضية.

ومن خلال معاينة مسرح الأحداث وبعد البحث والتحري تمكنت الشرطة من تحديد هوّية المشتبه بهم، وأمر وكيل الجمهورية لدى محكمة مستغانم بإيداع المتهمين الحبس الاحتياطي لغاية استكمال التحقيق.

جريدة مورستاغا

2011 – 01 – 02

لم أتعرّف عليها أوّل ما وقفت أمامي. انتظرتُ حتى استرجعت أنفاسها، وقدّمت لي نفسها:

– أنا أمُّ مريم، ألا تذكرني!

لم أحضرها إلاّ مرّة واحدة، وكان ذلك يوم كلِّفت بالتحقيق في مقتل ابنتها بإيعاز من الجريدة التي كنت أعمل بها محرراً. يومها وقفتْ أمامي صلبة عنيدة، فهل صار وأتلفها الحزن على ابنتها!

ملامحها هذه المرّة قد تبدلت. المرأة التي تقف الآن أمامي متهرئة ومنهكة وواضح أنها ترزح تحت عبء يثقلها، وأنها هرمت وتجاوزت سنّها بكثير.

انتبهت أنها كانت تضع طقم أسنان اصطناعية، احترت كيف لم أنتبه إليه من قبل. لقد كان الطقم يترجرج في فمها كلما بادرت بالحديث، وكانت تعمل على تثبيته في مكانه كل مرّة، وكانت تحاول أن تسيطر على نفسها في صورة عابسة ومنفرة، جعلتني أشعر بعدم الراحة وبالاستياء..

– هل من جديد هناك؟ لقد انتظرت التحقيق الذي وعدتني به طويلاً، وأتساءل لماذا لم ينشر إلى اليوم!

لم أعرف كيف أواجهها، واحترت كيف أجيب على سؤالها، وكل الكلام قد هرب منيّ. واكتفيت بأن داريت انزعاجي بابتسامة زرعتها على وجهي المغبون.

بدت اللحظات التي قضيتها في حضرتها وكأنها دهر من الزمن. لم أتحمل نظرات الخيبّة التي طالعتني بها، ولم أقو على الصمود أمام تعابير

وجههـا، خصوصـا أني لم أكـن قـادرا علـى إخبارهـا بـأن تحقيقـي جوبـه بالرفض من قِبل المسؤولين. وتملكني إحساس غامر بالذنب والتفريط، وشعرت بالاختناق وكأن الهواء الذي كان يحيطنا قد استنفذ فجأة، ورغبة كانت تدعوني إلى الركض إلى الأمام، لكني بقيت مسمراً مكاني بشارع الحرية قرب مقر البلدية كصنم ضائع لا ينتبه إليه أحد.

لا أذكر أنها تكلمت معي أو قالت أكثر من ذلك، فلم يكن هناك ما نتحدث بشأنه، وكنت طول فترة وقوفها أمامي أشعر بالغضب من نفسي، وكانت عيناي محتقنتين بالدمع، على أن دموعي ظلّت مستقرة مكانها مكابرة لا تريد أن تسقط. وبقيت مرتبكاً وحائراً أتساءل هل عليّ أن أطلب منها الصفح، عندما قامت تتجاوزني مبتئسة!

أذكر أني قد أثرتُ موضوع ابنتها في حينه، وكنت يومها محرر صفحة الأحداث بجريدة مورستاغا، وأثارت الحادثة بعد ذلك انتباه الرأي العام، فطالبني رئيسي بتغطيتها وتقديم ملف كامل عنها.

رحت ألملم أجزاء الحكاية من هنا وهناك، مصمماً على النبش في التفاصيل كما اعتدت أن أفعل عند كل تحقيق، وكنت كلما تقدمت أكثر في الموضوع وأنا أستجلي حقيقة تلك العيون البريئة التي التهمتها قسوة البلاد والعباد إلاّ ويزداد فضولي.

وجدت القضية ملغزّة، ولعل ما يشي به السطح عادة لا يكون نفسه ما يحويه العمق، كذلك كان هناك من لا يريد للحقيقة أن تتكشف وترى النور.

لقد اكتشفت ما أشعرني بالفجيعة وجعلني أصاب بالدوار والغثيان. لم تكن أبدا قصة عادية، وإن كان ما قَدَّمته يومها لم يرق رئيس تحريري، الذي قال لي بالحرف الواحد:

- أنت أكيد مجنون، هل تسعى لتوريطنا؟

لم استوعب ردّه في حينه، وسألته في رعونة من استغلق عليه الفهم:

- كيف أورطكم، سيدي؟

ابتسم وأجاب، وهو يضرب كفاً بكف:

- أنت هنا تشير إلى أسماء بعينها، وتنبش خلف شخصيات لها ثقلها، ومع الأوضاع العصيبة التي نعيشها يكون نشر تحقيق كهذا مجازفة ومغامرة مجهولة المخاطر..

ثم اعتقدَ أنه ينهي الأمر ويحسمه عندما قال:

- لا تجعل من رأسك صخرة، ولا تكن عنيداً. انس الموضوع يا ابني، واهتم بلقمة الخبز إذا أردت أن تستمر في الجريدة.

هل كانت جرأة منيّ حينها عندما سحبت ورقة وقلماً، ورحت أكتب استقالتي!

لا أظن، فقوّة رهيبة وأكبر منيّ ما كان يدفعني إلى ذلك، وشعور ملزم كان يقول لي إن هذا ما يجب عمله، ثم ما حصل بعد ذلك لم يكن مشجعا بالمرّة.

كنت بحكم مهنتي على صلّة بصحف كثيرة، وقد عوّلت عليها في نشر تحقيقي، لكن جميعها رفضته، والعلّة كانت واحدة، وإن تلوّنت الردود وجاءت متباينة.

كسرتني الحادثة وجعلتني أشعر بأني منتهك ونكلة لا تساوي شيئا، ورحت أستسلم بعد ذلك مرغماً أمام جبن هذا العالم الذي لا يرحم ولا يترك رحمة ربي تمر.

لكن كيف الهروب اليوم من هذا الشعور المذل الذي اقتحمني على غفلة مني وجعلني أستعيد تفاصيل ما كنت أهرب منه، وكيف

السبيل إلى الخلاص منه وإن بأقل الأضرار، ذلك ما كنت أفكر فيه عندما قامت تغادرني تلك المرأة!

قلت لأعربد الليلة ولأسكر، فلعل ذلك يخفف عني قليلاً ويسليني. لم أكن قد تذوقت الخمر في حياتي، ومع ذلك كنت أعرف من أين أحصل عليها، فالبلاد خمارة كبيرة، وسأجد أكثر من واحد يبيعها.

قصدت مرزوق، وكنت أعرف أنه يشتغل بالتهريب، ويبيع الخمر بشكل غير قانوني في خلفية مسكنه. سيستجيب لطلبي ولن يضر بي فهو لن يقدم لي خمرة مغشوشة كما يفعل أحيانا مع زبائنه ما دمت جاره ويعرفني شخصياً.

توجهت إلى منزله مباشرة، وفتح علي الباب صبي سألته عن مرزوق. غاب لدقيقة ثم عاد في صحبته.

استغرب مرزوق طلَّتي، وسألني وعيناه تجولان في المكان وترقبان ما حوله بحذر:

- هل تحتاج إلى شيء؟

ترددت، ولم أكن على دراية كافية بأمور الشراب، فاحترت ماذا أقول بالضبط. هل يجوز أن أقول أريد أن أسكر حتى يفهم عليّ، ونطقت أخيراً كالأبله:

- أريد أن أسكر يا مرزوق!

لم تعجبه طريقتي في الحديث، ونظر إلي متوجساً، ثم سألني مرتاباً:

- وماذا تريد منيّ بالضبط؟

- أريدك أن تتدبر أمري، فهذه مَرّتي الأولى التي سأجرب فيها ذلك.

ردَّ مستاءً، وقال في صوت ناشز ومضطرب:

– روح يا وقح اسكر عند أمك. أنا واشْ دَخَلْني!

– لكن أريدك أن تبيعني خمرة أسكر بها!

– لا نبيع خمرة هنا، والأكيد أن من دَلّك على العنوان، غرَّر بك..

مرزوق لم يصدقني. صرفني بلين، والأكيد أنه كان متهيباً من أمر ما. إنه يعرف صلتي بالصحافة اللّعينة ولهذا توجس منيّ. الصحافة كالشرطة تماما، فضّاحة، وهو يريد الستر والحفاظ على تجارته، ولن يرضى أن يمارسها إلاّ مع من اعتاد من الزبائن.

تذكرتُ فوزية، ابنة الحي وصديقة الطفولة. واحدة من اللواتي نقول عنهن أنهن طائشات. فتاة شغوفة بالحياة وأرادت عيشها بجنون وبراءة الطفولة فيها؛ لكن السعادة تأبّت عليها وسط أولئك الذين يتواطؤون مع الزيف باسم الدين والعرف ولو جاءتهم البينة، ولو جاءهم نبأ من السماء.

لا أدري لم عنّت على بالي فجأة. ربما لأني كنت في حاجة إلى حضن يكفلني وامرأة أقدر أن أفرغ فيها استيائي وحزني.

كانت آخر مرة التقيتها عندما لجأت إلي. طلبت مني أن أقرضها ألف دينار لشراء الدواء لابنها المريض بالحمى.

سألتها يومها:

– لماذا لم تطلبي من الجيران المساعدة؟

فردت علي قائلة:

– لجأت إليهم، لكن جميعهم تحججوا واعتذروا.

انتظرت حتى يسود الظلام لأسير إليها. خشيت أن تفضحني خطواتي أو أن يراني أحدهم أعرِّج على العمارة المشبوهة

والقائمة منذ العهد الاستعماري بدون تجديد أو ترميم بحي "المندرين".

لا أدري لماذا كنت أشعر – وكلما تقدمت باتجاه تلك العمارة – أن كل عيون العالم مسلّطة على رأسي وتقتفي أثري. وكان عليّ أن أتجاوز مجموعة من المساطيل والمكشرين وهم يرابطون أمام مدخل البناية. تقدمت أمامهم سريعا، وما إن ولجت عمق العمارة حتى زكمت أنفي رائحة البول الآسنة والقذرة والتي كان المكان يطفح بها. وعندما انتبهت إلى أحدهم ينزل ركزت بنظري إلى ما بين قدميَّ، فكأني مولع بجزمتي رغم أنها معفرة ومستهلكة، حتى إذا تجاوزني زفرت، ورحت أصعد الأدراج قافزا جامعا في كل خطوة بين درجتين أو ثلاث وكأني أختبر استعدادي وطول نَفَسي.

في الطابق الثاني لفت انتباهي أحد الصبية الصعاليك الوسخين وهو يفتح باب أحد الشقق. كان يريد أن ينطلق فارا إلى الخارج لكن يدا طالته. أمسكت به أمه وهي تصرخ فيه:

– يا ابن الكلب، لن أسمح لك بالخروج ما لم تقم بحمل كيس القمامة معك وطرحه خارجا..

وعاند الطفل وأخذ يبكي في وصلة تسبب الصداع والقرف، وهو يحتج:

– إنه ثقيل. ثم لماذا أنا من يحمله دائما!

وكأن المرأة لم تلمحني إلا حينها فقط. نظرت إلي نظرات مستفهمة، ثم ما لبثت أن أظهرت انزعاجها من ظهوري أمامها. تأملتني بالطول والعرض، وعندما انتهت مني سارعت بسحب طفلها إلى الداخل وغلق باب مسكنها في وجهي.

وفي الطابق الرابع والأخير وقفت جامدا غير حاسم أمري هل أطرق الباب الذي أمامي أم أتراجع. وفكرت في مظهري إذا ما طلع علي أحدهم ورآني بين إقبال وإدبار. وأخيرا دققت الباب دقا خفيفا.

لم يفتح الباب في حينه. وكنت قد خضعت لاستجواب عسكري قبل أن أرى وجه امرأة يطل علي في حذر بينما بقي الباب مواربا..

قلت أحييها، وأنا أتصنع ابتسامة عريضة:

- مساء الخير..

ظلت المرأة على حالها مترددة لحظات أخرى قبل أن ترد علي قائلة:

- مساء الخير سيدي. كيف يمكنني أن أخدمك؟

سألتها وأنا أمنح لابتسامتي العريضة مساحة أخرى:

- هل فوزية هنا؟

وكانت لا تزال تتفرسني تريد أن تطمئن أكثر عندما راحت تستفهم:

- وهل تطلبها شخصيا؟

- إذا كان ممكنا.

- حسنا تفضل..

وأفسحت لي المجال لأدخل..

وجدت المرأة تقتعد كرسيا متحركا. وقلت في خاطري لا بد أنها المالكة والمعروفة باسم "الباترونا مقروطة". إنها كانت ذات شهرة وصِيت على زمنها الأول، وحتما القوادة قد درت عليها ذهبا. وعندما بُترت رجلها بعد إصابتها بالسكري هيأت هذه الشقة، واشتغلت فيها كمدبرة وقائمة على "بيت للمواعيد".

لم نتبادل كلمة جديدة إلا عندما راحت تشكو قائلة:

- الطقس حار..

قلت أجاملها وأرد عليها:

- إيه، نعم. الحرارة مرتفعة..

بعد قليل عادت، فقالت:

- معذرة، إنه موعد الدواء..

قلت: - إيه، نعم. يجب التقيد بالعلاج ومواعيد الدواء..

بعد فترة عادت تسأل:

- هل هذه أول مرة تزورنا فيها؟

- إيه، نعم. إنها أول مرة..

- أرجو أن يروقك الأمر، وتصير زبونا دائما..

- إيه، سيعجبني الأمر حتما، ولا بد أن أصير زبونا مداوما.

كل ذلك، وأنا أجلس مسمرا على أريكة كاكية متهرئة، لوحاتها غير المستوية تحت إليتيّ راحت تسبب لي آلاما مبرحة دون أن أقدر على التزحزح أو الشكوى.

وفجأة داهمنا صوت شجار ينبعث من غرفة مجاورة، وما لبث أن أطلت علينا منها فتاة بقميص داخلي شفاف، لتقول للباترونا:

- إنه سكران، وأنا لا أطيق مضاجعة السكارى..

ردت عليها الباترونا مستاءة:

- ما هذا الكلام!

وظهر رجل معروق وبجسد مشعَّر ومبلل بالعرق، ليس عليه إلا "شورت" رياضي أزرق يحمل رقم خمسة، وينتعل حذاء معقوفا ومفتوحا فاه. وأخذ يحاجج المرأتين.

قالت الفتاة أنه يصر على لعق ثدييها؛ وقال المعروق أن ذلك من حقه وإلا فإنه يطالب باسترجاع ما دفع. ووضعت الفتاة يديها على وسطها، ونظرت إليه نظرات غاضبة..

- هـذا لـن يحـدث أبـدا. إن ثـديي لأبنـائي ولـن أسمـح لأحـد بلمسهما. إذا كنت تريد أن تفرغ نقمتك وغِلَّك فمرحبا بك، أما إذا كنت ترغب في شيء آخر فهو خارج نطاق الاتفاق. أتفهم!

هنا تدخلت الباترونا، وهتفت مكدرة:

- لماذا هذا التصرف "خولة"، طالما الرجل سيدفع!
- لينقلع من هنا، وليرضع أمه إذا شاء.
- تأكدي أني لن أذهب من هنا حتى أستعيد ما قبضته مني.

نظرت إليه متعجبة من وقاحته، وفتحت عيناها تماما وهي تواجهه..

- الأحسـن لـك أن تنطلـق مـن هنـا لتشـتكيني عنـد الشـرطة. ويمكنك أن تعود في صحبتهم إذا شئت لتستعيد ما دفعت..

لكن الباترونا التي كانت في صف الفتاة وآزرتها قبل قليل لم تلبث أن أظهرت تبرمها وضيقها هذه المرة. لقد هتفت تواجه الفتاة، وتقول في غير ما رحمة:

- هـل تعتقـدين نفسـك تشـتغلين في فنـدق سـبعة نجـوم! إذا لم يعجبـك الشـغل هنـا يمكنـك الانصـراف. لا أريـد معـي مـن يعبث بلقمتي. هيا عودي وناوليه ما يشاء..
- لكنه سكران كما أخبرتك!
- كل الرجال يسكرون..

حاولـت الفتـاة أن تحـتج لكـن دون جـدوى. وعـادت مهانـة إلى الداخل يتبعها الرجل وهو يضرب بيديه مصفقا كمن فاز..

ثم مـا إن مـرت دقـائق بسـيطة حـتى ظهـرت فتـاة أخـرى بقمـيص داخلي مدعوك وبياضه مشبوه، وهي تقول للباترونا:

- إن الشخص الذي بالداخل يعاند ويرفض أن يقذف، ويصر أن وصلته لم تكتمل ما لم يقذف؛ وأنا لا أعرف كيف أتصرف معه!

حينها قامت الباترونا بالدخول على الرجل وطرده، وهي تردد:

- قرف وحياة ضنكه. ماذا يظن أمثالك فاعلون بنا. هيا قم وانصرف حالا قبل أن أفضحك وأجعل منك فرجة بين الجيران..

بعد ذلك، ودون أن تغتسل أو تهتم بتنظيف فرجها قامت الفتاة تسأل عن التالي؛ ولأنه لم يكن هناك أحد غيري في الانتظار، فإنها نظرت إلي متعجبة من جمودي..

- ألا تريد أن تلحق بي؟

تلفَّتُ حولي، ونطقت بعدما غلبني الارتباك:

- أنا في انتظار فوزية..

طقطقت لباناً في فمها، وقالت من بين أسنانها:

- الرغبة لا تنتظر، وفوزية مشغولة الآن مع زبون آخر وقد تتأخر. لن تجد متعتك إلا معي، فهيا قم بنا إلى الداخل..

هززت رأسي معاندا، وقلت:

- أفضل انتظارها..

وعندما تأكدت من أنها لن تحرز مني شيئا انصرفت عني وهي تنظر إلي شزرا..

ظللت حابسا أنفاسي مختنقا حتى أطلت علي أخيرا فوزية بشعرها الأسود وعينيها اللوزيتين، وبقميص نوم أسود قصير ومفتوح على مستوى الصدر.

انفرجت أساريرها وكشفت عن ابتسامة عريضة لم تلبث أن اختزلت. كانت قد غلبت عليها المفاجأة والتردد والقلق. وهتفت في تعجب تسأل:

– ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وبدلا عني ردت الباترونا:

– لقد تأخرتِ. هذا السيد هنا في انتظارك منذ ما يقرب الساعة!

تبعتها، فقادتني إلى نفس الغرفة التي خرجت منها. هناك عرَّجت على مرآة بالجدار وتأملت حالها. رشت على جسدها عطرا رخيصا استخرجته من حقيبة يدها، وبسرعة لوَّنت شفتيها بالأحمر، ومسحت على شعرها تعدِّله قليلا. وأثناء ذلك كان التشتت قد تمكن مني، وشعرت بالاختناق.

كان مصباح النيون يزيد من حرارة المكان، وأما المروحة الكهربائية فإنها ظلت تكافح في عناد الحر المستفحل. وكنت أتساءل هل علي أن أنزع ثيابي وانتصب أمامها عار، أم علي أن أستخرج الورقة المالية التي بحوزتي والتي أودعها جيب سروالي الخلفي، وأنقدها إياها قبل أن أبادر بأي عمل آخر. ووجدت نفسي أتريث قبل أن تطلب مني أن أتقدم وأتفضل بالجلوس على كرسي خشبي مركون في أحد زوايا الغرفة.

كان واضحا أنها تعاني الحيرة والإرهاق. وبعد فترة صمت جمعتنا نطقت تسأل:

– منذ متى وأنت تعرف أني أشتغل هنا؟

– منذ زمن..

- تصورت أنه لا أحد يعلم ماذا أشتغل، وكنت أظن أنكم كلكم في الحي تعتقدون أني أعمل ممرضة في إحدى المستشفيات. لكن كما يقولون "رِيْحِة الكَتان تَعْيا وتْبان"!

إن ما أرومه واضح، فلماذا لا تعمل هذه الملعونة ما يجب عمله وبنفس الشكل الذي كانت تقوم به مع زبائن آخرين.. هل تخشى ألا أدفع لها! يجب أن أتصرف أمامها كما يتصرف الرجال عادة. بهذه الطريقة لن تفهمني وسأعود خائبا، وربما سأكتفي بدعك عضوي بيدي في آخر الليل!

ولم أدر، كم مضى عليّ من الوقت هناك عندما سمعتها تقول لي:

- أحاول تخمين سبب حضورك. لا بد أنك احتجت إلى مالك لطارئ. أعتقد أني أطلت عليك وماطلت كثيرا. إذا كنت تحتاجه حقا فيمكن أن أطلب سلفة من الباترونا، وإن كنت أعلم مسبقا أنها لا ترغب في تسليف أي واحدة منا نحن اللواتي نشتغل تحت إمرتها..

تَرَيثَتْ قليلا وقد بدا عليها السهو، ثم واصلت:

- أم تروم أن أقوم الآن فأتعرى لك! هل هذا ما جاء بك إلى هنا؟ أصدقني.. ربما هكذا نصبح متخالصين!

وقامت تحاول أن ترمي عنها ثوبها؛ لكني صحت فيها:

- لا. أرجوك ألا تفعلي..

بسرعة قمت إليها لأمنعها من تعرية نفسها أمامي. ولفحتني – على حين غرة– حرارة أنفاسها وأنا أقف وجها لوجه أمامها، لكن شهوتي كانت قد تبعثرت بعد كلماتها الأخيرة.

أردت أن أواسيها.. أن أندب وجهي.. أن أصرح بأعلى صوتي.. وكل شيء من حولي كان يقود إلى الانكسار والعطب والخيبة..

لم أكن أشعر في ذلك الحين إلا بالانسحاق والخجل. وربما كان شعوري مذلا أكثر من شعورها. لقد كنت أنا العاري أمامها، وأدركت أنه علي الانسحاب حالا!

عدت على أعقابي خائباً، ولم تكن لي وجهة أخرى غير البيت. قلت، لأسكن فراشي البارد، ولأفرغ عليه تعبي وأشجاني وأحزاني ولعلي أفوز بعزاء ما، وعلى الفراش لم أجد غير الدود، وقد أخذ ينقر فتات العقل المتبقي لديَّ.

جافاني النوم، فبقيت مسهداً لوقت متأخر من الليل. لم تفارقني لحظة صورة تلك المرأة "أم مريم". وأخذت تطاردني ملامحها وهي تشي بالحزن والغبن، أما نظراتها الناطقة بالعداوة فقد بقيت تستفزني وتحفر فيّ عميقا، وكأنها لم ترض إلاّ بأن تُحمِّلني نصيبا من وزر ما حصل لابنتها؛ وكأنها كانت تدينني بشكل ما، أنا الذي تحدّيت في سبيل التحقيق الذي قمت به الجميع، وحتى نفسي.

آه، لقد ظلّت تلك النظرات القاسية تخترقني وتعذبني رغماً عني، وراحت ترهقني وتشعرني بالتفتت والضياع. لقد شعرت بأني مريض بهذه القصة كلها، وأنها تلبَّستني بشكل مفجع. وقلت أحدث نفسي أنه لا سبيل إلى الفكاك من الشعور المزري الذي صارت تمنحني إياه إلاّ بالوفاء ببعض دَيني، ولن ينتشلني من الوضع الكريه الذي أغرق فيه إلاّ بذل المزيد من الجهد وتعوّيلي على مبادرة ما أتحمل من خلالها نصيبي من المسؤولية الملقاة على عاتقي، وأحقق من خلالها رغبة تلك السيدة.. مبادرة ترضيني عندما تبدد بعض العتمة التي ضربت داخلي

وتجعلني أتجاوز الإذلال والقسوة وكل ما كنت أشعر به، وإن عصف بدماغي فجأة سؤال مربك راح يشغلني بدوره.. "كيف السبيل إلى الحقيقة في بلد لا يريدها ويظل يخشاها!".. على أنه فجأة برقت في ذهني خاطرة، وتساءلت لماذا لا أكتب شهادتي على شكل رواية!

..ثم ألا يُعتبر مجموع ما يقدمه المبدع إلاّ نشرية من نشريات حياته منثورة هنا وهناك وبشكل مقصود ومضمر في أحايين كثيرة.. أليس ما يقدمه إلاّ مجموع أحلامه وأفكاره وهواجسه ورؤاه وشيء من نبضه وحياته.. هل كان لي أن أحيد عن هذه القاعدة، ونحن نعيش أصلا في مجتمعات منغلقة ترغب دائما في الكتمان والتستر على خصوصيتها ضد كل عيب يمكنه أن يتهددها أو يطالها..

ألا تصير الكتابة الأدبية، هدفا استراتجيا ضد المجتمع المنغلق وضد هذه الممنوعات وضد المخفي من عيوبنا والتي نخجل من الإفصاح عنها ما دمنا نخجل من لحظات الضعف والانكفاء ولا نختفي ونزدهي إلاّ بلحظات الانتصار ولو مصطنعا فينا..

والرواية (وهي فِعل يستند ويستوحي غالبا من تجربة صاحبه، وإن كانت أعمالا تكتسي صبغة التجريد أو الخيال) أليست، وأمام هذه الحالة من اللاصدق الذي نحيا به، أعظم اختراع أنتجته الإنسانية، وأجمل كذبة نقول بها بواطننا ما دامت لا تضطرنا إلى التستر ولا تشعرنا بالدونية أو الخجل من عرينا..

ولم يكن هناك من حل آخر فقمت في الحين إلى مكتبي. أردت أن أحسم أمري عندما عوّلت على هذا الخيار، فهل كنت كمن يصب الماء في غربال!

الناقوس 1
رَشيد الأزعر

"يا دين الربّ..

من يتورط ليطْلبني في مثل هذا الوقت المتقدم من الصباح. ألا يعرفون أنه يوم عطلتي!"

أزعجه أن يستفيق من نوم عميق لم يدم طويلا على هاتفه يرن، وحاول التغلب على تبرمه وضيقه بأن يغفل أمر الهاتف وأن يعود إلى النوم من جديد، لكن المتصل أعاد طلبه مرة ثانية وثالثة في إصرار وعناد. وخمن أن هناك ربما أمر خطير ويستحق. حمل هاتفه، وتأمل في رقم المتصل، ووجده لحسن زميله في المهنة..

– نعم، لحسن. ماذا هناك؟

وأنصتَ إليه..

– لكن ألم تجدوا غيري لِتُقلِقوه في هذا الصباح!

جعلته المكالمة منزعجاً، وحاول أن يضبط أعصابه، وفي غيظ وبعد فترة صمت أضاف:

– أريد سيارة هنا بعد نصف ساعة بالضبط..

كان في حاجة ماسة إلى المزيد من النوم. لم يشبعه. وجعل برد الصباح مغادرته للفراش أمراً ثقيلاً. تعارك مع نفسه، وحاول أن يفتح النور من لمبة الكوميدينو، فأوقع شيئاً على الأرض واللمبة

لم تجب. الظاهر أن الكهرباء مقطوعة. يلعنها بلاد..

تخلص من الغطاء أخيراً، وحاول التحرك مستعينا بهاتفه الخليوي. تزحزح من الفراش قليلا، ومدّ رجليه إلى الأرض وحاول أن يتلمس بإحداها خفه الصباحي. وجده، انتعله. وعندما حاول السير أخطأ المسلك. اصطدمت ركبته بحافة السرير، فأصدر لعنة جديدة وزعق:

- يلعن دينكم..

وأتاه هاتف من على جانبه يسأل:

- ماذا هناك؟

لطالما حلم أن لديه زوجة، بل كان يمتلك واحدة. زوّجته أمه، وكان يومها قد وضع الأمر بين يديها متعللا بعدم قدرته على البث في أمر واحدة مناسبة، ثم طلقها بعد فترة بحجة أنها انتفخت وترهلت وما عادت تصلح للمعاشرة. أما هذه فودَّ لو يقدر أن يسد فاها بضربة من قبضته ويخرصها إلى الأبد. ماذا تفعل هذه القحبة إلى جواره الآن!..

تذكر أنها جاءت في صحبته ليلة البارحة، وأنهما سهرا معا إلى وقت متأخر من الليل. كان قد تعرف إليها منذ شهر تقريباً. فتاة تمتهن حرفة الحلاقة. ليست في حاجة إلى مال أو معيل. حرة أو هذا ما تعتقده. في لسانها تأتأة خفيفة ظريفة تجعله كلما تحدثت يضحك ضحكات مضمرة وخبيثة. لقاءاتهما لم تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. في أوّل مرّة دخلت فيها شقته حاولت أن تظهر بمظهر من لا تجربة له. استفزته كثيراً حينها، فواجهها بقوله:

- لا ينقص إلاّ أن تخبريني أنك عذراء!

لمحت كرهه لها في تلك اللحظة، وأدركت أنها لم تُصِب في تصرفها معه، ورأت أن ترضخ له، وبدون تخمين اعترفت له وقالت أنها ليست

عذراء، ثم لم تشأ التوقف عند تلك الجملة فراحت تحكي له قصتها كاملة. كيف غرر بها أحدهم، وكيف ضحك عليها وتلاعب بمشاعرها بعدما وعدها بالزواج..

أخذت تتحدث سعيدة بأن وجدت من ينصت لها، مستمرة في تأتأتها التي بانت له هذه المرة هجينة ومنفرة.

لا، ما كان ليتأثر بحديثها. إن حياتها وما حصل لها لا يهمه في شيء. فقد تعلم كيف يطرح مشاعره جانبا. إنها ليست في شقته ليتبادلا حديثا في الأحاسيس وليحزن معها.

لم يظهر أي تعاطف بقصتها، ولم يساندها بأدنى كلمة، بل بالعكس من ذلك أظهر لها ضجره وتبرمه.. لا يريد شكائين هنا. يكفيه ما يبعثه فيه عمله من قرف. إنه لا ينشد إلاّ تزجية للوقت، وكل ما يهمه أن تكون الفتاة التي في صحبته حارة وملتهبة، وليكونا من البداية على اتفاق، ولتبقي عينيها مفتوحتين.

أخبرها أن قصتها لا تعنيه في شيء، وطالبها بالصمت، ثم ما لبثت في تلك الليلة وما أعقبها من ليال أن بانت على لهفتها وحقيقتها. وجدها جاهزة لأن تفعل كل ما يطلب منها بلا حياء أو خجل، وكان كلما باشرها ووصل إلى الذروة وقذف إلا وتقوم باستفزازه والعمل على إلهاب حواسه من جديد. كانت تلك لعبتها المفضلة والتي تلذ لها، أو أن شهوتها كانت تقوم على إيقاظ شهوته ورؤيته يستمتع. وآمن أن حدسه لم يخنه، ولطالما وثق فيه وفي اختياراته، ورآها صائبة.

لم يخف انزعاجه وهو ينتبه إليها إلى جانبه على السرير. وأجاب يرد على سؤالها في تبرم وضيق شديدين:

– لا شأن لك..

وطلب منها أن تستعد للخروج بعد لحظات، وعندما سألته أين ستذهب في هذا الوقت المتقدم من الصباح، قال لها غير مبال:

– أمامي ما يشغلني، فتدبري أمركِ!

لم يكن على عجلة من أمره، فلا يزال أمامه بعض الوقت. دخل الدش، وأخذ حمامه الصباحي. تغلب على البرد بالاغتسال بسرعة، ثم حلق ذقنه حلاقة ممتازة. إنه لا يريد أن يبدأ نهاره بغير حالة الابتهاج التي اعتادها، أما المنغصات فإنها جملة مكررة لطبيعة عمله ونمط الحياة التي يحياها ووجب عدم الوقوف عندها، وإلاّ فسد يومه.

بعد الدش قصد غرفته ليتهيأ، فاكتشف أن الفتاة لم تتحرك بعد من الفراش. هتف فيها:

– ألم أطلب منك أن تتجهزي للمغادرة؟

واجهته بعدم اكتراث، ولم تحرك ساكناً. استفزته لامبالاتها وعدم انتباهها لأمر أصدره، وحاول القيام بطردها، فنزع الغطاء عنها. داهمه عريّها، وبان بلا معنى هذه المرّة، وكأنها ليست من ألهب حواسه ليلة البارحة، أو كأن من صار يقف أمامها الآن شخص آخر كلياً..

أمسكَ بذراعها عنوة، وحاول أن يدفعها خارج الفراش. ذهل من ثقل جسدها. سحب يده متخلياً عن هذه الفكرة. تلفت، ثم دار حول نفسه. التقط ملابسها الملقاة على الأرض ورماها بها. واجهها بملامح جادة ومحذرة، وقال مبدياً مزيداً من الغضب والإصرار:

– لا وقت لديّ، ريثما أنتهي من قهوتي أجدك جاهزة. لا يجب أن أكرِّر هذا مرّة ثانية..

في المطبخ أشعل سيجارته الأولى. استمتع بها أكثر مما استمتع بقهوته. انتبه إلى بوق سيارة يغرد في الخارج، فقام وغادر شقته

مصطحبا الفتاة. ولم ينس أن ينبههما وهما ينزلان الأدراج ألا تتجاوز عتبة باب البناية حتى تغادر سيارته تماما.

كان يقطن حي 200 سكن، وكان قبل ذلك يشغل مسكنا وظيفيا بـ "حي الشرطة"، قريباً من مديرية الأمن العام بالولاية، لكن وبعد أن تحسنت أحواله المادية وبعد طلاقه لم يرض إلاّ بمنزل خاص يلقى فيه راحة كاملة. إن حيّ الشرطة محروس بشكل فظيع درءاً لأي عدوان أو تهديد؛ ولأجل استتباب الأمن فيه لم يكن يُسمح لأحد بدخوله إلا لمن ملأ "الفيش" أو يحوز تصريحا بالدخول، ولقد كان هذا يجعل أشخاصا من مثل رشيد يشعرون بالقلق حيال ما يعتبرونه ويسمونه حريتهم الشخصية.

اشترى شقة لقاء صفقة ممتازة أو هذا ما ظنه أوّل وهلة. كانت تخص أستاذاً جامعياً انتقل للسكن بـ "فيلا" بناها حديثاً بحي جديد، وعندما طالبه الوسيط بالحضور لرؤية الشقة وتفقدها قبل الخوض في مسألة السعر والاكتتاب، حسم هو الأمر من جهته وأخبر الوسيط أنها حتما مناسبة ما دامت شقة أستاذ جامعي، وتورط في "العربون"، ثم اكتشف أنها من القذارة بحيث أن زريبة ماشية تعتبر أصلح للسكن مقارنة بها. وأدرك متأخراً أنه غُرر به وأنه كان قد تسرع، وتعلم درساً فاته، وهو أن هالة الأستاذ الجامعي لا تعني شيئاً في بلادنا.

في الخارج كان صباح ندي يغطي المدينة ويرطب الجو، وكان الشارع لا يزال ميتاً ويغرق في الظلمة. وحدها سيارة بيضاء من نوع "كادي – فولسفاغن"، ما كان يعكر صفو هذا الصباح، سائقها لم يشأ أن يوقف محركها رغم هديره الطنان. إنه لا يعبأ بالنيام فهو من الشرطة، والشرطة هي القانون، والقانون فوق الجميع.

انتبه بعينيه الحذرتين والمتعودتين على الرؤية في الظلام إلى أحدهم وهو يخرج من مخبزة مجاورة لم ينتبه أنها كانت مفتوحة في مثل هذا الوقت بسبب انقطاع الإنارة عن الحي كله. لا بد أنه كان عائداً من صلاة الفجر، ورأى أن يعرِّج عليها. إنه يحضن عدداً غير هين من الأرغفة. قرر ألا يهتم به.

رمى بسيجارته قبل أن ينهيها حين هم ركوب السيارة. وجد أن لحسن، زميله بالعمل قد سبقه إليها. هو مساعد جيد وفطن، يحب مهنته ويحب النجاح أكثر. أحد أتباعه المفضلين، وذراعه الأيمن إذا استدعى الأمر.

وقال لحسن، وهو يشبك يديه حول كرشه المنتفخة أمامه بشكل فظيع:

- أخشى أن نكون قد أزعجناك على هذا الصباح..

رد عليه في لامبالاة كاملة، وكأن كلامه لا يعنيه:

- تقولها وكأنها المرّة الأولى التي يحصل فيها هذا!

بسط مساعده براحتيه أمامه، فلا خيار له في ذلك. وحينها راح رشيد يسأله مستعلماً عن الوضع:

- هل عرفتهم أي شيء عن الضحية؟
- القليل جداً. لم تتوفر لدينا كل المعلومات اللازمة بعد..
- وهل تمكنتم من تحديد العنوان بدقة؟
- نعم، سيدي..
- من سبقنا إلى هناك؟
- لا أحد، على حسب علمي.
- هل قمتم بإخطار الفرقة القضائية؟

- نعم، لكنها لم تتدخل إلى الحين..
- وما الذي يعطلها؟
- تنتظر إشارتك سيدي.
- امنحهم الإشارة، ثم خذونا إلى هناك لنرى ما يمكن عمله..

يعرف رشيد أن مثل هذه القضية لم توكل إليه عبثاً؛ لا أحد يمكنه أن يشكك في قدراته. لقد كان بارعاً في الكشف عن أسرار قضايا عديدة وضع يده عليها. إن حدسه القوي بالإضافة إلى الجرأة التي يتمتع بها ما يمنحه رؤية صائبة، ولا يمكن أن يكون من منحه لقب "السلوقي" أراد النيل منه بالسخرية فقط، فلقد كانت هذه الكنية تدل على اسم نوع من الكلاب العربية تتسم بصفات عديدة لعل أهمها مطاردتها الصارمة لضحيتها، فهي لن تتوقف أو تتراجع ما لم توقعها بين فكيها وأنيابها، وسريعا ما لفت انتباه المسؤولين بكفاءته العالية وجودة أدائه، ومكنه هذا من أن يترقى سريعاً، ولو أن الشهرة قد جلبت إليه حساداً كثيرين من أعداء النجاح.

أثناء الطريق سأل رشيد مرافقيه أيضا عن أي جديد آخر يمكن أن يكون قد حصل أثناء غيابه، وقال مساعده:

- لا جديد، إلاّ أننا نراقب الوضع عن كثب بعد قرار السلطات رفع الضرائب على المواد الاستهلاكية. نحاول توقع رد فعل التجار، ومع ذلك ما نخشاه هو أن يتحرك الشارع في ظل الوضع المتأزم. مثل هذا القرار يمس جيب المواطن بالدرجة الأولى..
- إننا نعيش في بلد مجنون. أنا لا أفهم كيف تقرر السلطات رفع الضرائب في عزّ الأزمة.. وكأنهم يستعجلون ساعتهم. ألا

يرون ما يحدث في دول الجوار! حقاً في السياسة كلنا بآذان طويلة. لا أحد يقدر أن يفهم كيف تُدار الأمور عندنا، فإما أن تكون هذه البلاد بمكر شديد، وإما أنها خاضعة لنزوات شيطان يقف على هرمها ولا يهمّه شيء، والحقيقة أنيّ صرت أشك في الحالتين!

- إننا جزء من هذه السلطة المدعيّة، ورغم ذلك لا أظننا نعرف كيف تُسيّر الأمور عندنا. من يملك اليقين يا ترى!
- ما نحن إلاّ قطع شطرنج يتم تحريكنا وفق أهواء اللاعبين الكبار، لا ينتظر منا أن نرفض أو أن يكون لنا أدنى موقف. خاضعون تماماً لمن أمرنا بيده، سواء كان يلعب بمهارة أو بغباء شديد، ليس لدينا الحق في أن نحتج!
- وعلى رأيك لهم السلوى ولنا يوم عصيب آخر.
- لقد أخبرتك، ليس من حقنا الشكوى، فابلعها وأسكت.
- إلاَّ هذه المرّة!.. كنت محتاجاً جداً إلى النوم هذا الصباح. لقد أصابني الأرق ليلة البارحة..
- لماذا؟ ألا تؤدي الزوجة الجديدة الدور المنوط بها!
- ماذا تقصد؟

غالبا ما كان رشيد يُنكِّد على صاحبه لحسن وهو يحاول أن يمازحه؛ وكان هذا الأخير يعتبر مزاح صديقه ثقيلا غير محبذ، سريعا ما يضيق نَفَسه به؛ ما كان يشكل حافزا إضافيا لرشيد فلا يكف عنه، ويظل يطارده محاولا إثارته والنيل منه، ساخرا من رد فعله، ومستلذا بوقع كلماته العابثة عليه..

- أليست المسكن ضدّ الأرق على الأقل!

– شرير. ليكن في علمك أنها في منزل والديها منذ أسبوع. أمّها مريضة.

– لو كنت عريساً جديداً مثلك لأمرت باحتجازها رهينة. ها أنت تدفع الثمن. مرحى..

وفتح السائق راديو السيارة..

لا أحداث هناك إلاّ ما يجري في تونس وليبيا.. ثورة، هكذا يقول الجميع..

وراح السائق يتحدث عن مشاهداته ليلة البارحة فى نشرات الأخبار العربية والعالمية، حتى صاح به رشيد:

– دعنا من أخبار القيامة على هذا الصباح.

وردد لحسن يؤيده:

– إيه، تكفينا القيامة التي نحن بصدد حضورها الآن!

ركنوا إلى الصمت، ولم يعد يصلهم غير هدير محرك السيارة وخشخشة الأجهزة اللاسلكية. أشعل رشيد سيجارته الثانية هذا الصباح، وعبّ منها أنفاساً. فتح السائق زجاج السيارة للتهوية، وداهمت وجوههم نسمات باردة. لقد انبلج الصبح الآن..

***

من قال إن المسافة بين الأموات والأحياء شاسعة!

في الشقة وجدوا الفتاة مستلقية على ظهرها في انبساط وسكينة. كانت عيناها مغمضتين، وإحدى قوائمها على الفوتيل بينما الأخرى مطروحة على الأرض.

أُخِذ رشيد بمنظر الفتاة. انفتحت عيناه على اتساعهما. تأملها وكأنه ينظر إلى فاتنة وليس إلى ميتة. بقي مشدوهاً مسمراً في مكانه فاتحاً فاه كأبله وهو يشيع كل ثنية من لحمها بعينيه الجائعتين. اجتذبه أكثر ما اجتذبه نصفها السفلي العاري. كانت رجلاها منفرجتان بشكل ملفت ومثير، وكانت بدون "كيلوت"، ليس عليها غير غلالة وردية شفافة من الساتان. صدرها عامر كحبتي رمان ناضجتين لا يحجبهما غير ظلّ بسيط. تضع ماكياجها كاملاً، وشعرها متماوج في تسريحة باذخة تشي بالعناية والدعة.

إنها متوهجة وفي كامل أناقتها. تمثال من المرمر. إلهة رومانية. فينوس في كامل أبهتها وحضورها. أميرة نائمة تنتظر قبلة حبيبها لتصحو من إغفاءتها..

لام نفسه. مثلها أين كانت متخفية، وكيف لم يعرفها وهي على قيد الحياة!

ثم من قال إنها ميتّة!.. لا تبدو كذلك بالمرّة. وتصورها غافية، تنتظر قبلة على شفاهها الكرزية لتهفو، وتعود إليها الحياة ثانية..

وعلى غفلة رآها تمد يدها تدعوه!

جفل، وانتبه إلى نفسه..

لكن ألم تمد يدها تدعوه!.. ثم كيف يصير ذلك، هل صار على أول الصباح يهذي!

عَجِب كيف استفاقت حواسه بهذا الشكل المريع!.. ومع المعارك التي خاضها ليلة البارحة، اعتقد أنه ما بقي فيه عِرق ينبض، فما باله يشعر بالاشتعال والانتصاب الآن!

نما داخله – ودون إرادته – جشع استنفر كل حواسه. وتوثب مستعداً لخاطرة أبرقت له بها رغبته العارمة. التفت حوله، وطلب متوتراً مساعده. أمره بغلق الباب والوقوف عليه، وعدم السماح لأحد بالدخول.

نظر إليه لحسن متعجبا وغير مستوعب أمره الصريح، لكنه لم يلبث أن فكر أنَّ عليه الانصراف إلى تنفيذ الأوامر دون إبطاء تجنباً لأي عواقب محتملة، وبينما كان المساعد يغلق الباب، كان المحقق يتساءل في سرّه: "هل حقا، كل هذه الأشياء يرتبها القدر!"

وأدرك أنه في وضع مأزوم، وكان يعرف أن خيارات التراجع قد باتت مستحيلة. وفكر أن الأهم من كل ذلك أن ينتهي بسرعة، وكأن لا شيء حصل..

***

وجّهَ تعليمات مقتضبة وجادة إلى فريق التحقيق الذي يعمل معه. طالبهم بإعداد بطاقة تقنية عن الحادثة والضحية، وأمرهم بقلب الشقة رأسا على عقب وبالتفتيش فيها وفي متعلقات الضحية الشخصية، واعتقال كل من يثبت تورطه بالقضية ومباشرة التحقيق معه. لقد علّمته مهنته ألاّ يستبعد عن دائرة الاتهام أحداً، ثم إن عمله كان يقتضي منه أن يسير بالمقولة المعروفة مقلوبة فإذا كان كل متهم بنظر العدالة بريء حتى تثبت إدانته فهو هنا متهم حتى تثبت براءته، وفي الأخير ختم كلامه بوجوب سرّية التحقيق، ثم أعطى إشارة البدء بالعمل سريعاً، فتحرك أعضاء الفريق، كل وفق المهمة الموكلة إليه، وبعد سِتّ ساعات من البحث والتحرّي كان ملف الفتاة أمامه على مكتبه. فتحه وتأمله

سريعاً، وأكثر ما اهتم به تقرير الطبيب الشرعي. فَضّه وراح يتطلع إليه بقلق باد، ثم ما لبث أن تنفس بعمق، فكل ما ورد فيه معقول ومقبول، ثم كان عليه بذل مجهود مضاعف حتى يقدر أن يطوّي الملف سريعا، وكان أوّل شيء بادر به في المساء أن برمج لقاء مع الإعلام، ليعلن عن سير تفاصيل التحقيق في القضية وفي قضايا أخرى متعلقة بمهنته وتهم الصحافة. وخلال اجتماعه بالصحفيين، حاول أن يظهر بمظهر من يسيطر على الأمر من خلال نظرة الاستعلاء التي قابلهم بها ومن خلال ملامحه الصارمة.

تحدث أمامهم عن تفاصيل جديدة بخصوص التحقيق، ونوّه بالعمل الكبير الذي تقوم به مجموعته، مانحاً رسالة واضحة مفادها أن المجرم سيقع قريباً، حتى إذا تلقف المجرم الخبر وحاول أن يتحرك يكون قد ارتكب أولى أخطائه فيقع في الفخّ.

وخلال اللقاء كان قد أثاره أحد الصحفيين عندما حاول أن يتجاوز رفقاءه بطرح المزيد من الأسئلة في فوضى ودون أن يؤذن له، حينها أشار له بإصبعه مباشرة، مطلقاً أمراً صريحاً، قائلاً له: "ابقَ هادئاً، أو تفضل بالخروج". واضمحل الشاب وغرق في ثنايا ما كان يرتديه. ولم تكن تلك الحركة عفوية بالمرّة بل كانت مقصودة تماماً. لقد سمحت للمحقق من استعادة سيطرته على اللقاء ومكنّته من بسط المزيد من الهيبّة والسلطة على الحضور وكان هذا يرضي غروره، خصوصاً وقد راح يتلقى المزيد من نظرات الإعجاب. إن قبولهم بصرامته ورضوخهم لأمر أطلقه وإعجابهم بالنظرة الفوقيّة التي يواجههم بها اعتراف ضمني بكفاءته وسيادته وشهادة لا تقدر بثمن يعتز بها.

***

لم ينتبه إلى نفسه إلاّ بعد أن نظر إلى ساعته..

– إنها السادسة والنصف!

جزع بعدما أدرك أنه تأخر وأن العمل قد استغرقه. حاول التخلص مما كان أمامه على عجل، وأسرع في الخروج من مكتبه.

طلب سيارة تقله، وأخبروه أن لا واحدة متوفرة حاليا، فزاد ذلك من حنقه وضيقه، وأبدى تبرمه وهو يلغط بكلام بذيء غير عابئ بأحد حتى تدخل زميله "بوعلي" وقد كان يملك سيارة خاصة استطاع أن يوفر ثمنها رغم أنه أقل منه خدمة وأدنى رتبة، وعرض عليه أن يأخذه في صحبته وينزله أين يشاء.

– كل ما أريده أن تقلني إلى كافتريا "كلاسيكو".

كان هذا كل ما تفوه به المحقق رشيد، الذي لم يبد أي مودة ولم يحاول رفع الكلفة بينه وبين بوعلي. ولقد بدا طول الطريق مشغولا، وظل يركن إلى الصمت غير مبال بحديث صاحبه فكأنه لا يعنيه بالكلام حتى اضطر الآخر إلى الصمت مجبرا. وعندما همَّ بالنزول لم يفكر أن يدعوه إلى فنجان قهوة، بل إنه لم يشكره ولم يلتفت إليه أصلا.

إنه ليس مستعدا للتنازل عن رتبته حتى وهو يحصل على توصيلة بالمجان، كذلك برأيه لا يجب الخلط بين الزمالة والعمل. لا تهاون في هكذا أمر. إن القضية مفصول فيها، وإن أي مبادرة من هذا القبيل قد تضعف ميزانه وتعد تهاونا خطيرا من طرفه غير مقبول.

ما حازه غير هين، وما ناله لم يأته مجانا أو من فراغ، ويجب أن يظل يقظا، لأن للمكان الذي يشغله بريق خاص، وكل الأعين مسلطة عليه، ولن يرحموه إذا ما اكتشفوا أن النيل منه سهل، ثم من قال أن

العداء بين أصحاب المهنة الواحدة غير موجود، وربما هو غير مصرح به فقط.

كانت مقهى كلاسيكو مجمع رجال الشرطة غالبا، وفيها يتشاركون قهوتهم ويلغطون، وفي جوها يشعرون بالحماية والحميمية. وكان رشيد قد اتخذ له مكانا في زاوية قصية غير مرحب بالتحايا والدعوات التي وجهت إليه من قِبل البعض للجلوس إلى طاولاتهم، وما كاد النادل يقبل عليه بفنجان القهوة حتى تسلط عليه التعب والإرهاق بعد يومه الحافل والعصيب، وللمجهود الذي بذله خلاله مما اضطره إلى شرب قهوته وحيدا وعلى عجل.

غادر المقهى راجلا. وفي الخارج كان الجو لا يزال جهما، وظل يشعر بالاختناق يتملكه. إنه يعتبر المشي محفزا قويا يساعده في التغلب على الكدر والتعب ومصاعب يومه، كذلك يدعوه إلى التأمل في مسائل حياته العالقة، ويجعله يتواجه مع نفسه ولو للحظات وينفس عن نفسه قليلا، خصوصا وأن الأمر يعدو مناسبا على هذا التوقيت تحديدا، وقد بدأ الظلام يرخي بسدوله على المدينة التي بدأت تفرغ من المارة وفظاظتهم وتتخلص من اكتظاظ شوارعها المزعج.

عرج على أحد المطاعم. عليه أيضا أن يأكل في الخارج حتى لا يكون مضطرا لإعداد شيء عندما يدخل شقته ويفاجأ بجوعه، وعلى طاولة العشاء تنبه للحسن يطلبه.

الأبله يقول أن والد الضحية "بومدين العربي" الذي تم اعتقاله لا يزال تحت تأثير الصدمة، ويسأل هل يجوز احتجازه كبقية المتهمين!

صاح فيه..

– ما بك يا لحسن، هل صرت تتعاطف مع الحثالة؟

- لا، فقط أنا أقوم باستشارتك يا سيدي..

رد عليه محذرا وفي صرامة، ومبديا غضبه الشديد:

- بالمطلق لن يهمني أمره، وفي كل الأحوال أنا لا أريد غير الحقيقة، وكيف أنتزعها منه. ضعه مع الآخرين، وإياك والرجوع إليّ في مثل هذا الأمر ثانية.

وأقفل الخط في وجهه..

في مسكنه استلقى بكامل ثيابه على السرير. كان قد وجده كما تركه في الصباح مهملا وغير مرتب ومحتفظ بدفء ما، ولعله روح بهجة مرت عليه.

فتح جهاز التلفزيون، وعالج جهاز التحكم عن بعد وراح يقلب في قنوات عديدة دون أن يهتم بالتوقف عند محطة معينة ودون أن يعجبه شيء.

تذكر بعض تفاصيل يومه..

أكان حقا ممتعا ما ناله هذا الصباح من امتياز!.. وهل كان باذخا ومغر ذلك الجسد الأنثوي العامر الذي صادفه في طريقه!.. هل حقا لم يكن قادرا على تجاوز الفتاة، أم أن ما به يتجاوزه ويتجاوز أمر الفتاة وبكثير!..

وغلب عليه الانزعاج..

ربما هذا من حر هذه الليلة، إنه لا يطاق!

لا، إن ما يشعر به ليس مرده في الذي حصل صباح هذا اليوم. إنه متأكد.. ما يملؤه وينكد عليه وأحيانا يخنقه ليس له علاقة بذلك، فقد تعلم منذ زمن كيف يقفز على إحساسه بالندم وشعوره بالذنب. إن ما يثقل عليه أكثر قسوة، أو أنّه شعور بالخزي والتفريط في أمور

أكبر حصلت معه قبل اليوم.. أمور لا يمكن العودة إليها الآن وإصلاحها. وإنها تظل تؤرقه وتزعجه كلما أقبل على النوم، وإنها ما يقوده إلى الجحيم دائما..

***

هل بدأ الإنسان الهش فيه بالاستيقاظ!

لم يكن قادرا على الفكاك من ماضيه، وظل يشعر دائما أنه مشدود إليه كلوحة خشبية إلى ملزمة. وكلما حضره شريط حياته إلا وزكمت أنفه رائحة احتراق وشواظ، وكانت الرائحة تلزمه أن يلتفت ليبحث عنها حوله لما كان يشعر بها قوية. وكم كانت تخنقه مسببة له صداعا شديدا وهرجا في دماغه.

لا تحتفظ ذاكرته بشيء عن والده، وكل الصور التي تضج بها مخيلته استقاها من الصور الفتوغرافية القديمة التي تحتفظ بها أمه في صندوقها الخشبي مع أشياء أخرى.

لقد توفي أو استشهد – كما يحلو للجميع أن يردد– في حرب رمضان يوم انتصر الجيش المصري على الإسرائليين.. يومها احتفل الجميع بالنصر العربي، وانتظرت عائلته عودته المظفرة ليكتمل فرحها، لكنها وجدته يعود مسجىّ في صندوق خشبي. حينها تبددت مشاعر الابتهاج كلها وتلونت النفوس الفرحة بالغم والحزن، وما ظل لابدا في الأعماق وضاعف الحزن أكثر أن الحرب التي خاضها الرجل لم تكن تعنيهم لولا طيش القائد الوطني أو نخوته الزائدة، وعله فكر أن يرد بعض جميل مصر عليهم.

يكاد يجزم أنه لو قُيد لوالده البقاء حيا لكان له هو مسار حياة مختلف، كذلك بات يتصور أن قصة حياته يمكن أن يؤرخ لها انطلاقا

من حادثة موته. إذ بعد ذلك بفترة صار الأخوال يشتكون من طريقة تربيـة أخـتهم لابنهـا الوحيـد، ولم يتوانـوا – في ظـل غيـاب الوالـدين (الجدّين) المتوفيين – في تعنيفهـا وسبّها بسبب ذلـك. وكـانوا يـرددون على مسمعها بداع وبدونه:

– لن يضيّع تربيته إلا أنت!

وكانت ترد عليهم مختنقة وفي احتجاج:

– ولدي وأربيه كما يحلو لي. ابقوا فقط بعيدين، ولا تتدخلوا..

حينها كانوا يركبون رؤوسهم معاندين، وأمامها يبسطون ما يرونه مناسبا، ويجاهرون بالقول لها:

– لن تقوي عليه. الابن لأعمامه، وهم الأولى بتربيته والأقدر!

ثم جاءهم بعد ذلك خاطب يطلب يد أختهم. رجل رماه القدر أو الحظ أمام بابهم، وكان من النادر أن تحظى المرأة (الهجالة) أو الأرملة بعريس، فـابتهجوا لـه، ورأوا فيه فرصتهم التي لـن يضيعوها؛ واغتنموها صونا للشرف الكريم.

كـان اسمه فيصـل، مغترب، يقيم على الأراضي الفرنسية، وجـار قديم قبل أن يقرر والده الهجرة. ويذكرون أنه كان شابا يافعا خلوقا لا يبدر منه إلا ما يسر. ثم إن هذا الأربعيني، ضخم البنية، والذي يدخن بشراهة أخبرهم وهو يتحدث مستعملا يديه الاثنتين غير منتبه لما ينفثه فمه من رذاذ يتطاير ويطول به كل من هم حوله.. أخبرهم بعدما سألوه عـن مهنتـه أنـه يشـتغل في ورشـة للميكانيكـا، فهـل كـانوا يطمحـون في عريس أحسن منه!

لم يتصـوروا أن الأخـت سـترفض هـذا الـزواج، وكانـت أختهم قـد أبدت رفضها لأجل ابنها غير متقبلة فكرة فصلها عنه؛ ولقد حاولت

مقاومتهم. وكانت وهي غارقة في دموعها تهتف في إصرار: "محال أن يحصل ذلك!"..

لكن من كان سيهتم بدموعها أو بكلماتها بعدما أعدت الخلطة وصارت الطبخة جاهزة!

فُصل في الأمر، ولقد تم تحديد موعد للعرس.. هكذا قالوا لها وهم يضعونها أمام الأمر الواقع. وعندما استحلفتهم بالله ألا يفصلوا بينها وبين ابنها، أكدوا لها أنهم اشترطوا على العريس أن يبقى الابن في حضن أمه، وأنه لم يبد رفضه للفكرة. وأقيم العرس بدون بهرجة أو ضجة اقتصادا في النفقات بعد اتفاق الطرفين، وسارت العروس في موكبها فكانت وكأنها تساق إلى الموت.

ما حصل بعد ذلك كان غير المتفق عليه، فقد تقرر وضع الابن عند أعمامه ريثما يجهز ملفه ويعود قادرا على السفر في صحبة الزوجين، ما دامت المعاملات الإدارية الخاصة بملفه ليست هينة وسوف تأخذ وقتا طويلا، والعريس يريد الانتقال والإقامة سريعا في فرنسا حتى لا يفصل عن عمله.

كره الصبي البيئة الجديدة أوّل ما وضع قدمه فيها، فلا شيء مما وجده بانتظاره كان يشبه عالمه الأول. لم تكن هناك في عالم الأعمام أحضان وقبلات.. ضحكات ومسرات.. ألعاب وبهجة..

كان الفضاء الذي أجبر على العيش فيه فضاء مغلفا بالجهامة، ووجد أن كل شيء فيه يدعو إلى الإحباط واليأس. ونمت الكراهية في فؤاد الصغير ضد كل الذين زجوا به في هذا العالم، وضد الوسط الذي أقحم فيه عنوة. ولقد حاول أن يحتج فتلقى تعنيفا كبيرا، وأكل أوّل

(علقة) في حياته، وضرب بلا تهاون فترسخ الخوف لديه، وصار بعد ذلك خاضعا وطيعا يتقن الأدب.

وفي فرنسا، وعلى أيام زواجهما الأولى أدهش الزوجة الجديدة نفور زوجها منها، فقد صار يخرج مبكرا ودون أن يشاركها قهوة الصباح، ثم لا يعود إلاَّ بعد منتصف الليل، وبات كل همه حينها أن يحظى بالنوم. وعلى السرير كان يشيح بوجهه عنها، ولم يحاول أن يقربها إلا في فترات متباعدة؛ وعرفت أنها تورطت في زيجة لعينة لا خلاص لها منها. ولم تكن حقيقة أمره لتبقى في بئر إلى الأبد، ويوم تكشفت لها كانت بطعم الصدمة مضاعفا. وصلها خبر مقتل زوجها، وعرفت يومها أنه كان الرجل الثاني في عصابة تروِّج للمخدرات، أو هذا ما أوردته الصحف الفرنسية في حينه، مؤكدة خبر سقوطه بعد تناحر بين جماعتين متنافستين.

غمرها الحزن، لكنها لم تعرف هل كانت حزينة عليه أم على حالها، ثم رأت أن تتخلص من كل ذلك عندما قررت العودة إلى الوطن وأهلها.

إخوتها لم تعجبهم فكرة رجوعها إليهم، وحاولوا جهدهم ثنيها. ولم تكن لترضخ لهم هذه المرة أيضا. لن تسمح لهم بأن يعبثوا بها. ليشربوا من البحر إذا شاؤوا.. لقد هتفت فيهم تقول: "أبقى هنا لأجل أي شيء، أخبروني!.. أما زلتم تعتقدون أن لكم الحق في تقرير مصيري وسعادتي!.. وضعتموني في ورطة حقيقية ثم تخليتم عني ولم تتعظوا بعد. أنا راجعة، ولن أبقى في غربتي أضرب أخماسا في أسداس، ولي ابن بعيد عني..".

اكتسحت عيناها الدموع أوّل ما رأت ابنها رشيد. لم ينتظرها في المطار كما توقعت، ولم يحضر لزيارتها في اليوم الأول لوصولها كما

رجحت، ويوم التقت به أخذته بالأحضان وظلت طوال الوقت تتحدث إليه عبر دموعها.

تكلمت كثيرا في حضرته حتى أنها لم تنتبه إلى الوقت الذي مضى سريعا. وعندما نهض ابنها فجأة، وأخبرها متعللا أنه مضطر للانصراف لأجل موعد هام، انقبضت روحها.

لا يزال هناك الكثير لتخبره به، ثم إن ذلك لا يهم. هكذا قالت بعد ذلك، وهو إذا ما انصرف الآن، فلكي يعود غدا. أمامها الزمن كله، وستشبع منه ويشبع منها، ولا فراق هذه المرة، وهي تقسم على ذلك..

كان قد صادف عودة الأم أن راح الأعمام يقررون في أمر رشيد، ورأى واحد منهم في إحدى الجلسات أن الفتى قد بلغ سن الرشد، وتحدث قائلا: "على الفتى أن يكسب رزقه بساعده، فلا يمكن أن نظل نطعم فيه كبهيمة إلى ما لا نهاية..". واتفقوا جميعهم على أن رشيد قد تحصل على كفايته من التعليم، وما من داع يجبرهم على مواصلة خدمته. إن الوقت قد حان ليجابه مصاعب الحياة كرجل؛ وأما التعليم فبنظرهم ليس مهما إلا بالقدر الذي يوفر لصاحبه منصب شغل دائم؛ وما دام العمل موفورا وهم بحاجة دائمة إلى يد معهم في تجارتهم، فلا حاجة له به. لكنهم عندما واجهوه برغبتهم وجدوه يرفض هو الذي لم يكن ليفعل ذلك لولا عودة أمه ووجود مكان يلجأ إليه.

أمام عنادهم هجرهم إلى أمه. ووجدت المرأة ابنها يقف أمامها وفي يده حقيبة مبعوجة، وهو يقول: "لقد سئمت العيش مع أعمامي. كرهتهم، فهل لي من مكان معك!". وكانت هذه آخر أمنياتها، ولأنها شاهدتها تتحقق فقد تأكدت من أن زمن معاناتها قد ولى، وهتفت:

"مكانك هنا (قالت ذلك وهي تشير إلى عينيها)، وأغطي عليك بالرمش يا قرة العين!"..

اعتقدت الأم أنه آن الأوان لتجف دموعها بعدما عاد إليها ابنها وصار في حضنها، لكن ما اكتشفته في اللاحق من الأيام جعلها تشك وترتاب. فمن عاد شخص آخر مختلف، عصي، حاد الطبع والمزاج، لا يمت بصلة إلى حبيبها الذي رضع من ثديها.

لطالما ظلت متوجسة متخوفة، وكانت تحاول القفز على القلق الذي ينتابها كلما نظرت إلى عينيه غير معوِّلة إلا على الفرح، معتقدة أنها تستحقه بعد كل هذه السنين من الغياب والألم. ثم ها هي هواجسها تتحقق، وها هو الرعب الذي ظل مترسبا في أعماق بطنها ينتقل إلى قلبها المفجوع فيثقله.. من قال أن الله يحبها!

لم تقدر أن تهضم فكرة أن يتجند ابنها في سلك الشرطة، وخصوصا أن البلاد في تلك الأيام كانت تمر بفترة عصيبة، والإرهاب كان يعيث فسادا، ورجال الأمن ما عادوا يأمنون حتى على أنفسهم وأرواحهم.

لقد تمنت لو تحتفي به طبيبا ناجحا أو مهندسا معماريا أو قاضيا تنحني لوقعه الرقاب، ولم يكن لها هذه المرة أيضا إلا دموعها، واللهج له بالدعاء..

وأما رشيد، فقد كان يعتقد أنه قد بلغ سن الرشد، وصار يقدر على الاعتماد على نفسه. قال إنه يدرك حاجاته، ويعرف كيف يبلغ ما يريد، وكيف يسير إلى مبتغاه بخطى واثقة. طارحا كل عارض يعتمل في نفسه ومقاوما عواطفه، فما ضيع الإنسان – وحسب رأيه – إلا عاطفته..

***

أما تلك الواقعة فلا تزال تعبره وكأنها حدثت بالأمس القريب فقط. يذكرها على الدوام بعدما خابت كل مساعيه في الفكاك منها، فكأنها التصقت بذهنه بصورة نهائية بفعل غراء لاصق شديد الفعالية. ويظل يسترجع كافة تفاصيلها المزعجة والمرهقة رغم ما تسببه له من أحزان وآلام.

إن المهانة التي تذوقها يومها ستظل تسكن عقله وروحه ما ظل مرتبطا بهذه المهنة العفنة. كان ذلك على أول عهده بالخدمة. تلقى وزملاءه في فرقة التدخل السريع أمرا تنفيذيا يطالبهم بالتوجه إلى حي "قادوس المداح"، والإغارة على مجموعة إرهابية بعدما تم رصدها، وقد كانت تتخذ من أحد البيوت هناك ملاذا آمنا لها.

وقادوس المداح مدينة قديمة في الأصل تنضح جوانبها برائحة البول والقذارة، بشوارع ضيقة ملتوية ومتداخلة فيما بينها، مساكنها أشبه بالبناء الفوضوي تتكدس فوق بعضها البعض في صور منفرة ممسوخة تثير استهجان الناظر إليها لما فيها من قبح. كذلك كان دخول رجال الأمن إلى ذلك الحي أمرا نادر الحدوث لخطورة الوضع الأمني غير المستتب فيها خصوصا، بالإضافة إلى نوعية قاطني تلك الأحياء فغالبيتهم لا يتعاطفون مع قوى الأمن، والداخل إلى ذلك الحي يظل يتشمم كل ما هو حوله ككلب منبوذ وحقير، متحرصا من موضع قدمه فهو كمن يدخل حقل ألغام، وعلى كل خطوة يخطوها قد يتولد انفجار يجهز عليه.

وجدوا العالم كله بانتظارهم هناك. عتمة المساء وقد أخذت تظلل الحي. الأطفال الصغار الذين كفوا عن ركضهم ولهوهم أول ما لمحوهم. النساء اللواتي كن يجمعن الغسيل من على حبال المقامة في الشارع، وقد

رحن يحتجبن ويختبئن أينما كان. الرجال القابعون أمام مساكنهم أو المتحلقون حول لعبة "الضامّة" أو "الدومينو" وقد توقفوا عن لعبهم وراحوا يتابعونهم بنصف عين. بائعوا الخضار وهم يجرون عرباتهم وحميرهم منادين بأصواتهم الجهيرة على ما يبيعون، وقد تلاشت أصواتهم واضمحلت وغدوا لا يفكرون إلا في الخروج من الحي سريعا. وما لبث أن أدرك رجال الشرطة أنهم أشبه بالجرذان داخل متاهة. كانوا يتراكضون وهم لا يدرون لقدمهم موضعا ولا أين سينتهي بهم المطاف، مجبرون على التقدم إلى الأمام خلف قائدهم والذي كان بدوره يتبع مرشدا مشدودا إليه حتى ولو كان يقوده والآخرين إلى الجحيم. وفي نقطة غير متوقعة باغتهم رشق كثيف من نيران مجهولة المصدر. ووسط هرج ومرج وزعيق أخذوا يزحفون باتجاه كل مكان كانوا يعتقدون أنه يمكنه أن يحميهم من غزارة النيران وشراستها، مدركين – بعد فوات الأوان – أنهم وقعوا في مصيدة لعينة ومكلفة.

ولاذ رشيد بدوره بأحد الجدران القريبة منه، وود لو يلتحم بها. لبث هناك منكمشا على نفسه لا يستطيع لجم خوفه، وبصره عالق بما حوله يراقب أسقف المنازل المحيطة به والمنافذ فيها.

إنها نهايتهم لا محالة، هكذا اعتقد. وكان يقول لنفسه: "لا أحد يمكنه الخروج من هذا الكمين حيا..".

لم يكن الانسحاب ممكنا، كذلك لم يكن من الممكن البقاء مدة طويلة على ذلك الوضع دون أن يكون فيه حتفهم. وكان لزاما عليهم تكثيف جهودهم والمبادرة بالهجوم والرد على مصدر النيران كسبا لمزيد من الوقت مع محاولة فتح ثغرة في المكان تسهل عليهم عملية التراجع وبأقل الخسائر، أما المهمة التي كلفوا بها فمن الواضح أنها آلت إلى فشل ذريع..

ثم للحظة ألقى رشيد بنظره إلى زميله الراكن بقربه. وجده يغرق في بركة من الدم وأنفاسه مكتومة بعدما اخترقت جسده رصاصات قاتلة. لقد فارق الحياة دون أن يشعر به أحد.

شعر بالاختناق، فكأن منافذ الهواء كلها سدت عليه أو استنفذت فجأة. وداهمه على أثر ذلك خور شديد وتلاشت قواه. إن مصيره لن يختلف عن مصير صاحبه لا محالة.. تبا لهذه المهنة التعيسة. إن كل الشعارات التي لقموه إياها لن تدفع عنه المصير المحتوم.

حاول الشهيق والزفير، وواصل تلك العملية في اطراد محاولا التغلب على خوفه، ثم بادر إلى استعمال سلاحه، وبدأ في إطلاق النار باتجاه مصادرها مستدلا على ذلك بحدسه، ومستمدا المزيد من الشجاعة من إصرار زملائه على المواجهة وتحديهم للموقف. وعندما أشار إليهم قائد الفرقة بوجوب الانسحاب حالا، أخذوا يتراجعون مولين الأدبار في لهوجة وتشتت، كلٌ يسابق حتفه..

من يومها عاد لا يخشى الجحيم، وهو برأيه لن يكون مختلفا أو أشد قسوة عما عايشه وما زال يعيشه إلى اليوم.

أما الإيمان، فهو أن يحيا بالطريقة التي يريد، وأن يبقى منسجما مع ذاته، وهذا أكثر ما يرضيه.

يكفيه أن يتخلص من مهنته المقرفة، وأن يعيش عمرا مديدا بلا أسقام مزعجة. يجوب العالم في جولات عديدة، ويعاشر ما شاء من النساء الجميلات، على أن يحضره في الختام الموت بغتة فلا ينغص عليه.

لا يعتقد أنه يفلسف الأمور أو يعقدها إذا ما فكر على هذا النحو، وعلى العكس من ذلك فإن الأمور – كل الأمور واضحة لديه.

وما يتفوه به الآخرون وما قد يتقوّلون به عليه لا يظنه مُهما. وهو يعرفهم جيدا ويدرك أنهم منذ وجدوا غير مشغولين إلا بالاغتياب واللمز، وكل حديثهم في سير الناس ولن يعجبهم العجب يوما، ومتأكد أيضا أن الكثير ممن يعرفهم جاهزون لأن يرجموه حتى الموت لو اطلعوا على ما في نفسه، لكنه يعرف أيضا أن لا سيد بعده على قناعاته، وهو لا يريد إلا أن يعيش بالشكل الذي يرضيه وإن مثقلا بخيبات العالم كله.

كان ولا يزال يرفض المثل العليا، وبرأيه أن كل من يتشدق بها إما أن يكون ساذجا وأبلها، وإما أنه يستغفل الناس لشيء في نفسه، ثم ما فائدة الطيبة والصلاح في مجتمع يعتبر أصحاب هاتين الميزتين من السذج والأغبياء.. مجتمع أقيمت أساساته على الولاءات، وكلها مكفولة لمن تمكن من القوة أو السلطة أو المال. أما الوعاظ ورجال الدين ففضائحهم تسبقهم وتزكم أنوف كل من اقترب منهم، ولا أحد يدري ما يجري خلف الجدران الأربعة وفي الخلوات، ولكل واحد فضيحة مؤجلة إلى حين لو يدري، وهو نفسه طيب متى شاء، ومستعد ليكون قاتلا إذا اقتضى الأمر، وكثيرون يخذلون ربهم، لكنه لا يعتقد أنه يخذل أحدا..

***

فتح خزنة الكومدينو، وأخذ حبة منوّم، ثم قام إلى الحمام واستحم. عندما عاد ثانية إلى فراشه لف سيجارة حشيش كان قد أحضرها معه من مكتبه وراح يدخنها على مهل شديد، ولم يبد منشغلا – هذه المرة– إلا بالأنفاس التي راح يطلقها وهي تنشيه وبدخان سيجارته وهو يلاحقه بناظريه..

الناقوس 2

بومَدين العَرْبِي

استدعاه المحقق إلى مكتبه، ليقول له:

– يمكنك أن تغادر. أنت حر..

غريب الشعور الذي راح ينتابه!

قبل قليل كانت جلّ أحلامه تتلخص في أن يطلع من الوضع المزري والمتعسف الذي وجد نفسه يغرق فيه، وكان كل همّه أن يخرج من الحجز اللّعين الذي طاله دون وجه حق. وكأن ميزان الإدراك اختل عنده، وجد نفسه يتقبل خبر إطلاق سراحه ببرود عجب له وإحباط يتعذر فهمه.

في الخارج أغمض عينيه وهو يجابه النور، لكنه عاد ففتحهما على سعتهما. تنفس ملء رئتيه هواء جديداً، ثم ما لبث أن لفحه هواء المساء الرطب وأنعشته نسمات باردة. تقلصت عضلاته، وشدّ بمعطف الكاشمير حول جسده. احتضن نفسه. إنه يدرك أن لا عزاء ولا دفء سيطوله في هذه المدينة التي خرج إليها قبل لحظات.

وكأن بها شيئاً مختلفاً هذه المرّة، أو أن شيئا فيه صار يشبه هذه المدينة التي أخذت تغرق في الضحالة ويكتنف سماءها الغم ويسري في وجدانها الإحباط واليأس.. ها هي تواجه الكل بمزاجها العابس والمتوتر والمخنوق، وتعلن جهاراً أنه لم يبق فيها ما يصلح للحياة. إنها وقلبه المسكون والمملوء بالسواد والرماد سواء..

ينخره شعور مثقل بالذنب منذ اللحظة التي تلقى فيها خبر الإفراج عنه. إنه شعور لا يفهمه، فهو لا يزال في حالة اِلتباس ويشعر بالوهن بعد كل الذي حصل معه. إن أوّل ما يفكر فيه الآن فنجان قهوة وسيجارة يعالج بهما الدوار الذي يغشاه!

***

كان يتناول قهوة المساء رفقة زوجته ربيعة عندما سمع خبطاً غير معهود على الباب، نظر إليها باستغراب وكأنه يسألها هل هي بصدد انتظار أحد، لكنها بدت أكثر منه استغراباً، حينها نهض مستعجلاً لينظر من يكون هذا الطارق المزعج واللحوح.

أمام الباب وجد شرطيّاً يسأله:

- هل أنت بومدين العربي؟

تسمر مكانه متعجباً، ونظر إلى محدثه بلا دهشة أو فزع وكأن الأمر لا يعنيه. ردّ عليه:

- نعم، أنا هو. ماذا هناك؟

- هل تعرف أين ابنتك الآن؟

- لا، لماذا؟.. حتما هي في بيت زوجها!

- لقد وُجدت ميتة صباح اليوم في شقتها بحي 100 مسكن.

قذف الشرطي بكلامه دفعة واحدة، ودون أن يراعي مشاعر محدثه. حينها فكّر بومدين أن ينتفض أمام هذا الأزعر ويطرده صارخا بملء فيه: "طِر من هنا، قبل أن أطيّرك بقبضتي هاتين".

لم يكن قد استوعب كلمة مما قاله. إنه حتما قد أخطأ في العنوان. وأقبلت الزوجة نحوهما وقد وصلها نتف من حديث غريب.

استغربت وجود الشرطي أمام الباب، وقالت تسأل وهي تنظر إليه قلقة:

- ما الذي يجري هنا؟
- أليس اسم ابنتكم مريم العربي؟
- نعم، هذا اسمها!
- حسنا، فهي من وُجدت ميتة في شقتها بحي 100 مسكن..

أمام جملته الأخيرة شعر بخطورة الأمر وفداحته. تلوى حول نفسه كالتائه، ونظر إلى زوجته علّها تسعفه بشيء ما، ووجدها قد سبقته إلى التيه وصارت كحفنة أوراق في مهب الريح.

لقد أخبرته قبل أيام وهي تحدثه عن ابنتهما، أنها سعيدة بحياتها الجديدة. فما الذي يمكن أن يكون قد حصل، وهل كان للابنة ما تخفيه!.. ثم ما بالها تصرخ الآن من شدة الألم وتكاد تنهار!.. هل لأنها صدمت مثله بالخبر أم لأنها كانت على علم بأشياء كانت تحصل مع ابنته وزوجها القاضي وراحت تصر على إخفائها عنه. وحتما في الأمر أكثر من سر!

خبط رأسه بكلتا يديه كالمعتوه، وهتف غير مستوعب الأمر تماماً:

- ألم تكن بمسكنها الزوجي؟
- هل كانت متزوّجة!
- منذ ثلاثة أشهر، من القاضي منصور بن عياد.
- ولمن تعود الشقة التي وُجدت بها؟
- هي شقتها الخاصة؛ أما مع زوجها فقد كانت تقطن شقة بصلامندر.

– حسنا، سندقق في الأمر، أما الآن فلدينا أمر بالتفتيش. هل تسمح؟

أسند زوجته، وحملها إلى الصالون، ومن هناك تابع مذهولاً ما يحصل في شقته. كان رجال الشرطة قد اكتسحوا المكان وراحوا يقلبون الأثاث ويعيثون فساداً في المكان. عن أي شيء كانوا يبحثون. لا يدري!

حاول أن يستعيد صورة ابنته من الذاكرة، لكنه لم يقدر. استغرب واندهش وهاله الأمر. حتى ذاكرته تخونه من وقع الصدمة، ورغب في البكاء وإن لم يعرف إليه سبيلاً. إنّ شيئا ما يقف هنا في الصدر يخنقه، ويشد على أنفاسه، ويكبح كل شيء فيه.

شعر بالإرهاق وبالرغبة في الاستسلام، ووَدَّ من صميم قلبه لو يقدر فيعود فيغلق الباب في وجه الشرطي وأزلامه فيرجع كل شيء إلى أصله وكما سبق وكان، لكن الشرطي وبعدما انتهوا من التفتيش عاد فقام أمامه، يقول:

– لديّ أمر باعتقالك. أنت مطلوب للتحقيق.

داهمه ظلام كالح. هل له أن يقبض على خناقه. إنه يريد أن يهزّه بعنف علّه يستفيق. ما يقوله أشبه بالجنون، وما يحصل له غريب ولا معنى له!

واستسلم تماماً، وكأنه غاب عن الوجود، وعندما استفاق وعاد إليه وعيه وجد نفسه في الحجز.

***

حلَّ الليل منذ قليل. هكذا الحال في الشتاء، وكمتسكع وجد نفسه أمام جسر 17 أكتوبر. كان يعتقد أنه يسير هائماً دون وجهة محددة، ثم اكتشف أنه كان يتقدم باتجاه بيته. اعتراه الذهول، وتساءل منزعجاً وكأن وصلاً كهربائياً مسه: "هل عليّ حقاً أن أعود إلى هناك!".

تسمرت رجلاه فجأة، وتوقف عن التقدم إلى الأمام..

لأول مرّة يداهمه هذا الشعور. وكأن ليس له مكان يلجأ إليه!.. حتى عندما كان سائق شاحنة وكان مضطراً إلى التنقل والسفر والمبيت خارجاً لأيام، لم يشعر بمثل هذا الشعور، بل على العكس كان يحدوه دائماً الأمل بالعودة سريعاً إلى البيت. كان هناك من ينتظره، أما الآن فقد تلاشى كل ذلك، ولم يعد يعتقد أن أحدا في انتظاره!

في الأخير اقتنع أنه لا يملك خياراً، فليس هناك مكان آخر يذهب إليه، وأوكل أمره لرجليه تقودانه وإن رغما عنه حيث شاءت.

لم يفكر في أن يستقل أيّا من وسائل النقل. منوط به مواصلة السير مشياً على الأقدام، لعل ذلك يجلو أفكاره ويخفف عنه، لم يفعلها منذ زمن طويل، بل لا يذكر أنه كان مقدراً عليه أن يقطع هذه المدينة يوماً على قدميه.

شارع المطمر خال الآن. غارق في صمت رهيب لا يخترقه إلاّ زعيق كاراجات بعض الباعة من الذين تأخروا في غلق محالهم لطارئ ما، وها هم يغلقونها الآن. بعد قليل سينسحب على هذا الحي المخمورون والحشاشون ليعوّضوا باعة الألبسة النسائية و"شُهرة" العروس، مستعرضين وقاحتهم وعربدتهم.

– هذه أوّل مرّة أراك فيها تسير على قدميك!

التفت مباغتاً نحو مصدر الصوت، وتفاجأ عندما وجد من يكلمه جاره "شعيب". كان هذا الأخير يتقدم نحوه ويريد اللّحاق به..

سلّم عليه، وعزّاه في مصابه قائلاً:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، مصيبة وتزول..

كان جاراً يقطن معه في نفس الحي. بحار يعمل على مراكب صيد السمك. نحيف طويل وأسمر بشارب خفيف. يلبس "بلو مارساي" بلون حائل بالإضافة إلى كنزة مخططة عرضاً باللونين الأبيض والنيلي، وكان يضع على رأسه "شاشية" قبعة سوداء من ماركة "سان جيمس" أصلية، وينتعل "بوت" جلدي ويحمل قفة في يده، وكانت تنبعث منه رائحة عفنة، ولا بد أنه كان عائداً من الميناء.

وقال شعيب من جديد يسأل:

- هل أنت عائد إلى البيت؟

كان بذلك يدعو نفسه إلى مرافقته، وبومدين لم يرحب ولم يرفض. ووجد نفسه يسير إلى جانبه في استسلام.

أثناء الطريق أخذ الجار يتكلم، وبسرعة راح ينتقل من موضوع إلى آخر. أحداث الأرض كلها لخصها له في بضع دقائق وكأنه موجز أخبار عظيم، وبومدين يهز برأسه دليلاً على المتابعة، ولم ينطق بكلمة واحدة معلقاً. إن ما يجيش به صدره يشغله عن هموم الدنيا كلها. وما لبث شعيب أن سأل:

- هل تتابع ما أقول. تبدو ساهماً بينما أنا أحدثك!

- مرهق قليلاً، فلا تشغل بالك.

- لا عليك، أفهم..

ما الذي يفهمه هذا المأفون.. أيدري أن ابنته الوحيدة قد توّفت، وأنه لم يكتب له أن يشهد جنازتها.. هل يفهم أنها وُجِدت ميتة في شقتها، وأنه هو – والدها– من كان متهماً بقتلها.. ما الذي يفهمه هذا الوضيع!

أفزعه قوله وأقلقه وأثار غيظه. نظر إليه بحقد، ثم أسلم نظره أمامه وعاد يتابع طريقه غير منتبه إلى مرافقه الذي فتح قفته بعد حين، وراح يعرض عليه بضاعته..

– هل تحتاج إلى السردين؟ يمكنك أن تحصل عليه مقابل مئة دينار.

كثيراً ما كان يفعل ذلك معه. يعرض عليه بضاعته مقابل المال. هو الآن يرغب فيه بشدّة. مُحال أن تكتمل ليلته دون سدِّ حاجته من "الكِيف".

في حي 348 الذي يقطنه التحق به صاحب محل للمواد الغذائية كان قد لمحه وجار كان ماراً بالمكان. ربتا على كتفه وواسياه كما يليق بأب فقدَ أحد أبنائه. رغم ذلك فقد بدا منزعجاً. كان يرغب في أن يتخلص منهما سريعاً ليقدر على الصعود إلى شقته.

إنه يريد أن ينسحب من هذا العالم، فبعد مقتل ابنته، واتهامه بذلك صار يشك في قدرته على مواجهة الناس. يعتقد أن هيبته ضاعت، وأنه مجبر على الانسحاب حتى لا يضطر إلى مجابهة أعينهم التي ستطالعه بألف سؤال وسؤال. رغماً عنه وعنهم سيجدهم يسألون. هكذا هي عادتهم. لن يكتفوا بنصف خبر وسيظلون يريدونه بتفاصيله كاملة، وفي الغالب سيزيدون عليه من عندهم وسيزايدون.

أمام باب الشقة تلقفته زوجته بدهشة وعدم تصديق. فرحت كثيراً بعودته، وأفسحت له المجال ليدخل، وفي الداخل أخذ كل واحد منهما

ينظر إلى الآخر في صمت وخرس إلى أن غلبهما الانفعال، فقاما يحضنان بعضهما وأجهشا بالبكاء.

كان "توفيق" بالبيت. إنه حفيده الوحيد من ابنته مريم. ابنها من زواجها الأول الذي لم يُثمر. لا يزال صبيّاً بعد. عمره ستُّ سنوات. قبّله وأبقاه في حضنه.

- طردته "نصيرة" زوجة أبيه. هو هنا معي منذ أسبوع..
- لكن والده، ألم يسأل عنه؟
- لا خبر عنه. أظنه اعتقل أيضاً للتحقيق.
- لا يهم..

على الأقل لا يريد أن يفقد هذا الصبيّ الآن. هو كل ما تبقى له من الغالية ابنته. سيصير عزاءه في هذه الدنيا.

ثم لم يدر كيف سمع كل هؤلاء الذين توافدوا إلى شقته بنبأ خروجه من الحجز. في أقل من ساعة كان المسكن يعج بالمعزّين. ضاق بالجميع، ورغم ذلك حاول أن يضبط أعصابه. ما كان ليواسي الكلام الطيب رجلاً مثخن بالجراح.. رجل فقد ابنته الوحيدة ووردته الجميلة وصبيته التي تعادل ابتسامتها عنده جميع الصباحات التي عاشها..

كان الموقف حساساً، ومن شدّة التعب والإرهاق كان بينه وبين الثورة شِبر. تحامل على نفسه، وقال:

- أعذروني، أفكر في الراحة قليلاً. سأخلد إلى النوم إذا سمحتم..

فهم الحضور إشارته، وبدأوا بالانسحاب واحداً في أثر واحد، وغادروا المنزل..

وضعت زوجته العشاء أمامه لكنه لم يقدر أن يمد إليه يدّه. كان يكفيه أن يدخن، فدخن بشراهة. وكانت ربيعة لا تزال تجلس إلى

جانبه. أرادت أن تفتح طريقاً إلى قلبه وأن تبادله أطراف الحديث، وعندما رأت صمته قامت تغادره. حضَّرت له الحمام. قالت له، سيخفف عنك تعبك وسيزيل الرائحة المنفّرة التي تنبعث منك.

أنعشه الحمام، لكنه لم يقدر على النوم. لقد تخلى عنه وهجره منذ تلك اللحظة التي وصله فيها نبأ وفاة ابنته أو منذ اللحظة التي دقت فيها الشرطة باب مسكنه. وعلى السرير، وفيما ظنت ربيعة أن زوجها نائم، قام هو مخنوقاً وأخذ ينشج كالأطفال. كان قد طلب منها أن تحكي له كيف سارت جنازتها.. جنازة ابنته!

***

أي صباح آخر جديد كان يمكنه أن يحل في ظلّ غيابها، وأي مذاق يبقى للحياة غير مذاق الفقد المرّ!

على صباح لا يشبه غيره من الصباحات وقف يستعيد تفاصيل حياة ابنته مريم.

لم يدر كم مرَّ من الوقت وهو لابِد يسكن غرفتها. كان كالهارب من تاريخه ليسكن تاريخاً لم يُكتب له، لكنه أحبه بتفاصيله الصغيرة ولا يزال..

لم يفكر أنه سيفقد أحد أبنائه لصالح الموت في يوم من الأيام. كان يرى أن الأمور مقدرة بحكم السنّ. ينتهي هو أوّلاً ثم يأتي الدور عليهم. كان يعتقد أنهم من سيعانون من فقده، ثم وعندما يكون قد شبع موتاً يحل دورهم، كذلك قيّدت له السنوات التي عاشها أن يفقد الكثير من الأعزاء على قلبه، لكنه يعتبر تجربته مع ابنته مختلفة. ليس من سمع كمن رأى، ومن يقول لك أنه يشعر بك ويفهم جرحك يكذب عليك. إنّها محنة مرّة ومرعبة وسيعيشها لوحده.

موت ابنته أفقده صوابه. لم يعرف أنها تسكنه إلى هذا الحدّ، ولم يعرف أنه كان يحبها بهذا القدر الملغم والمتشظي والحارق.. لم يعرف أن الموت وحده الذي كان سينبهه إلى ذلك. فَقْدُها جعله ينسى إهانتها الأخيرة له عندما عَصت أمره لتتزوّج من منصور القاضي الذي لم يوافق عليه. الأكيد أنه هو من تلقف تهديده لابنته بالقتل وأبلغ عنه. تمردت عليه وشقت عصى الطاعة وكفرت به، فلم يكن ليتهاون أو يغفر لها. أشعرته بالمهانة، ومن شدّة الغضب لم يقدر أن يتمالك نفسه، فراح يصب لعناته عليها، وجرت كلمة القتل على لسانه، ويدرك أنه كان كلاماً للتنفيس عن روحه المطعونة والمجروحة لا غير. ثم إنّ كلام المحقق يصدمه. لن يصدّق أن هناك من يقدر على قتل ولده، فلا شريعة ولا قلب ولا وزر يسمح بذلك.. الآن ليس يطفو على السطح غير عاطفة أب نقية وخالصة.

وضاق بالوضع فهتف مختنقا: "لماذا يا ربيّ؟ ما معنى كل هذا! أي جريمة ارتكبت لتجازيني بهكذا عقاب!"..

على أنه في تلك اللحظة تماما قامت في باله ذكرى قديمة.. "خيرة" زوجته السابقة تقف أمامه ما بين ألم ودمع، وتصرخ فيه: "ها هو وجهي إذا شِفت الرِبح أو لقيته في طريقك. لا أنت ولا ذريتك من بعدك. تلقاكَ دعواتي على شِيبتك!".. ثم اندفعت المزيد من الذكريات وأخذت تعصف بذهنه بعدما اعتقد أنه نسيها تماماً. كان يستعيدها الآن، وأخذ جرح آخر ينفتح ويعصف بقلبه الضعيف الذي لم يعد يحتمل نكبة جديدة.

كانت ربيعة ابنة مدينته الصغيرة "بوقيراط". فتاة يتيمة خرجت إلى العمل لتعيل أسرة مكوّنة من أم لا حول لها ولا قوة وأربعة إخوة لا زالوا

صغاراً ولا زالوا يطمحون إلي حقهم في التعليم واللعب. لم يرض بعملها أحد من سكان مدينتها، فنبذوها ونعتوها بأحط النعوت والصفات، خصوصاً وأنها كانت تخرج سافرة لتثير فيهم غرائزهم الدفينة. تعرّف عليها يوم حمل ابنه ياسين ليأخذ حقنة التلقيح في عامه الثاني. هناك في المستوصف الذي كانت تعمل فيه ممرضة لمحها وتبادلا أولى نظرات الإعجاب.

انجذابه إلى ربيعة وهيامه بها ثم رغبته في الزواج منها ما جعله متهماً في نظر الآخرين. ووحيداً كان عليه أن يجابه القبيلة. الوالد والزوجة خيرة والأهل وسكان مدينته، فوالده لم يقدر أن يهضم فكرة زواجه الثاني، واعتبر الأمر مجرد نزوة وحماقة شاب مهاتر، وأكثر من ذلك رآها استفزازاً له وتحديا لسيطرته وعصيانا قد يقوّض أركان سلطته فقام بطرده، وكان بذلك ينذر كل من تسوّل له نفسه مجرد التفكير في الخروج عن عصى طاعته العمياء، ثم جاء الدور على خيرة. كانت ابنة عمّه، وقد توفى والدها، فزوّجها له والده لتجد لها مكانا بينهم. خيّرها بومدين بين الذهاب معه أو البقاء في مملكة الوالد، وخيّرته هي بينها وبين ربيعة.

كانت ترى في زواجه الثاني امتهاناً لكرامتها، لكن بومدين كان مصراً على خياره وجاداً، حينها قامت بشتمه وتوعدته.

لم تكن قد تجاسرت عليه من قبل. هاجت غرائزه ولم يتمالك نفسه فصفعها، لكن ذلك لم يزدها إلا عناداَ. طالها من جديد، وقام بضربها. وتدخل الأولاد لإنقاذ أمهم، فهاله وقوفهم إلى جانبها. لم يهضم ما حصل، ونهرهم وطالبهم بالتراجع ثم راح يصب لعناته عليهم جميعا.

لم يكن هناك من سبيل أمامها فطالبته بالطلاق وأصرّت عليه، ووجد نفسه مجبراً فمنحها حريتها. أقدم على خيار لم يرده بعدما سُدت أمامه جميع السبل، ثم واجه أمره بشجاعة وتخلص من كل شيء كان يربطه بعالمه الأول عندما اختار بعد زواجه من ربيعة الهجرة إلى فرنسا. لكن هناك لم تعجبه الحياة. منذ صباه لم يكن راضياً عنها، فعاملته بالمثل. دفعته تلك البلاد إلى باب الانتظار سنوات عديدة. لم يحقق فيها شيئاً يستحق، ثم ازداد قلقه وإرهاقه بميلاد ابنته مريم فقرر العودة إلى الوطن، وكانت ربيعة هي من تمرد عليه هذه المرّة.

رفضت فكرة العودة وصممت على البقاء في العالم الذي اعتقدت أنها تنتمي إليه، ويوم أخذ مريم وعاد، لحقت به مجبرة، لكنها لم تهضم قراره أبداً وظلت تنكد عليه، ومن يومها وهو يعيش حياة لا يصلح لها من اسم إلاَّ الجحيم.

كما تَفعل يُفعل بك، هذه هي الخلاصة التي انتهى إليها بعد كل هذه السنين، وهتف مختنقاً: "ماذا أرجو فيما تبقى لي من أيام؟ هل عليّ أن أرضى بعيشة الكلاب!"..

أخذ هاتفه الخليوي، وطلب ابنه مراد ببوقيراط. كان هذا ابنه البكر من خيّرة. ما إن سمع صوت والده وتعرف عليه حتى صاح:

- هل خرجت؟ أتمناك بخير. متى أطلقوا سراحك؟

قال يرد عليه، ويوصيه:

- خرجت البارحة. اسمع، انتظرني على الظهيرة. سأحضر للزيارة.
- لكن أبي، أنا من سيحضر إليك. سأمر على إخوتي وأسحبهم معي. لا تقلق..

- انتبه جيداً إلى ما أقوله.. انتظرني في بيتك. أحتاجك هناك لأمر.

عرّج بعد ذلك على الحمام أين حلق ذقنه المهمل. شرب قهوته ودخن سيجارته في المطبخ، وعندما انتبهت إليه ربيعة يتحضّر للخروج، سألته:

- هل أنت خارج؟
- نعم، إلى بوقيراط. سأزور الأولاد كالعادة.

نظرت إليه مستفهمة، ثم ما لبثت أن قالت:

- ... المهم أن تخرج.

أقلع بسيارته، وما كاد يقطع مسافة قصيرة حتى وجد نفسه أمام حاجز عسكري. كانت الطريق مقطوعة على غير العادة عند المسار المؤدي إلى وسط المدينة، وقرب مركز الشرطة بحي "تجديت".

طلب منه شرطي كان يقف هناك أن يعود أدراجه، وعندما سأله ماذا هناك، أخبره أنهم مضطرون لقطع الطريق حتى لا تتعرض السيارات للرشق من طرف المتظاهرين.

المدينة تغرق في التظاهر والاحتجاج وهو لا يعلم، وكأنه غائب عن هذا العالم تماماً. لكن هل عليه أن ينشغل بالأمر!

وحاول أن يرصد شيئاً من مظاهر الاحتجاج، ولمح في البعيد بعض السكان يقطعون الطريق بإطارات السيارات ومكبات النفايات، وكانوا يشيرون بأيديهم يتهددون ويتوعدون ويهتفون:

"كرهنا، مليّنا..

يا سُراق الخزينة"

"شْدوا الحزام، شدوا الحزام..

ودراهم البترول
ياكل فيهم غير الغول"

كلما ثارت المدينة، إلاّ وكانت غضبتها من هذا الحي العريق. هنا يسكن البسطاء والمحرومون، ومن هنا تنطلق شرارة كل تمرد، لأن الجياع أوّل من يصرخ. ولو أنه صار لا يثق في حسن نواياهم، فهم غالباً سيعملون على تخريب الممتلكات والاعتداء بهدف السرقة.

يريدون وبأي وسيلة ما ليس لهم، وهذه فرصتهم التي لا تعوّض، ثم "إذا تصاكَّت الخيل تَجّي في الضعيف"، لهذا فكر أن يخرج من هذا المكان سريعاً ويعرّج على طريق الميناء ليقدر على النفاذ. إن ما ينتظره أهم بكثير.

كان ذاهباً إلى بوقيراط، وكأنه ذاهب إلى حرب أو لثأر قديم. وجد ابنه مراد في انتظاره. أخذه بالأحضان، وسلم عليه مراد بدوره وأدخله بيته. هناك التقى زوجته ليلى التي رحبت به كثيراً، وسريعاً ما وضعت أمامه صينية القهوة والحلويات؛ أما الأحفاد فالتحقوا بجدّهم وسلموا عليه والتفوا حوله حتى أنسوه بعض ما فيه. ولم يلبث أن سأله مراد مستفسراً وقلقاً:

- خير إن شاء الله..
- ليس هناك غير الخير، جئتك برجاء..
- يا والدي، أنت تأمر!
- أريد أن ألتقي أمّك لدقيقة.

ارتسمت على قسمات وجه مراد تعابير مجهولة. ولبث للحظات صامتاً غير مستوعب طلب والده. نظر إليه نظرات من يريد أن يفهم،

وحار كيف يجابه طلبه أو كيف يرد عليه، وأخيراً استمهله لدقائق، وخرج كالهارب الذي ينطلق قبل أن يستوعب إلى أين!

هل توّقع أن ينقل مراد الخبر إلى والدته.. ربما، لكن أن يجد خيّرة تَقبل بالحضور إليه فهذا الذي لم يكن يعوّل كثيراً على حصوله.

أوّل ما رآها، ضجت عيناه بالدموع. حضر أمامه الماضي كله، وكأن ما حصل كان البارحة فقط. حتى السنون لم تبدل فيها الشيء الكثير. لقد وجدها تقف إلى جانب ابنها صلبة وكما عهدها، وما لبثت أن قالت له في رباطة جأش وثقة:

– رحم الله مريم، وسبحان من له الدوام..

ابتلع ريقه بصعوبة. تنحنح. كبّله التوتر، وحاول التماسك. هتف فيها وقال:

– خيّرة، أرجوك لا شماتة. أولاد ربيعة ليس لهم أي ذنب، فارفعي نقمتك عنهم وعنيّ. أتوسلك!

وسقط على ركبتيه، وهو يجهش بالبكاء..

في تلك الأثناء ندّ صوت تكبير شق الفضاء. كان ذلك آذان الجمعة، وكان يعلن عن وقت الدخول في الصلاة.

اقتربت خيّرة منه، وساعدته في النهوض، وهي تقول له في صوت رقيق وهادئ:

– لست ناقمة على أحد. هيا يا حاج إلى الجامع، إنّ الله غفور رحيم!

الناقوس 3
منصور بن عَياد

في الجوّ رائحة عرق وعفن تأفف منها. رفع السحاب يغلق فتحة سرواله، وكان قد وجد قميصه الأزرق الذي يرتديه متدل منها. مسح على فمه بكف يده، وغرز بسبابته في أنفه يجلوه، ثم مسح عليه. عدَّل من سترته يستر بطنه المترهل، ومضى يقطع بهو المحكمة في حركة بطيئة بسبب ثقله.

كان خارجاً لتوّه من صالة المحاكمات، واكتشف أنه يشعر بالإنهاك وبجوع بغيض، وتذَكر صديقه في المهنة إبراهيم. ولقد وعده أن يطلبه فور انتهائه من المرافعات، ففتح هاتفه الجوال وسأل عنه أين يكون.

سُرَّ جداً عندما أخبره إبراهيم أنه بمطعم فندق "الموجة الزرقاء" بشاطئ "صابلات" أين يتناول غداءه رفقة الشلّة التي يعرفها. وحدّث نفسه أنه ضمن غذاء طيباً ولذيذاً على حسابهم ودون أن يضطر إلى دفع سنتيم. وقال يوصي إبراهيم:

- لم أتغد بعد فإياكم أن ترفعوا المائدة قبل أن أحضر، مسافة الطريق فقط.

ومرت به إحدى كاتبات العدل بالمحكمة، فانتظر حتى تجاوزته، وحرك بنصف عينه يترصدها. واسترق النظر إلى مؤخرتها. وقارن ما شاهده بالصور التي لا تزال تحتفظ بها ذاكرته العطشى وخياله الملتهب. أبدى إعجابه بها. ونقَّطها، فمنحها علامة ثمانية من عشرة. وقبل أن

يمعن النظر في أخرى، وكانت تبدو أكثر إدهاشا وإثارة انتبه إلى أحدهم يسد عليه الطريق، ويمدّ له يده بالمصافحة..

- سيدي القاضي "منصور بن عياد"، هل تسمح لي بكلمة على انفراد؟

أبدى انزعاجه، ونطق من بين أسنانه يسأل:

- بخصوص ماذا؟

حينها قدم الشخص نفسه..

- معك المحقق رشيد.

وقدم إليه استدعاء باسمه. ونظر القاضي إلى الورقة كمن لم يفهم، وسأل:

- وهل ستعتقلني إذا لم أشأ الذهاب معك؟
- لن يكون هناك إلاّ استجواب قصير في أي مكان تريده حفاظاً على الشكليات، سيدي..
- لكن ألاّ ينفع هذا المكان!
- ينفع جداً.
- إذاً هات ما عندك..

لم يدر بخلده أن الأمر شخصي، فبحكم وظيفته كثيراً ما يجد نفسه يتعامل مع ضباط وأعوان أمن؛ أما المحقق الذي كان يقف أمامه فقد أصر أن يأخذ أقصر السبل. وقال بصيغة مباشرة يسأل:

- هل كانت مريم العربي زوجتك؟
- ماذا عنها!

تعكر مزاجه فجأة، وحاول أن يضبط أعصابه ما وسعه ذلك؛ بينما واصل المحقق أسئلته:

- ألاّ تعلم ما حصل معها؟
- وماذا حصل!
- أظنك في مستوى أن تتحمل أي أخبار سيئة..
- لا تتعمد إثارتي وهات ما عندك بسرعة.
- لقد وجدت ميتة في شقتها.

ولم يقدر إلاّ أن يبدي دهشته..

شعر بالصدمة، وحدس أن ما يقف على عتباته الآن غير هين، وأن أموراً غير سارة في طريقها إليه..

وأضاف المحقق رشيد يقول:

- وجدت مقتولة في شقتها، ونحن الآن بصدد البحث عن الجناة..
- آه، فهمت الآن.
- لكن هل كانت حاملاً منك؟
- هذا ما حاولت إدعاءه. لا أنكر أني كنت أعاشرها، لكني بالدور كنت أتوقع أنه يمكنها أن تكون على علاقة بغيري في نفس الوقت، وتَأكد أنها حاولت ابتزازي باسم الحمل فقمت بطردها، ولو كان لها شيء ضدي ما كانت لتصمت..
- كلامك منطقي جداً؛ وإن ليس هناك ما يمنع أن يكون الحمل منك إذا كنت تعاشرها كما سبق وقلت!

هذا ما ظلّ يخشاه..

أي مصيبة هذه التي سقطت على دماغه. ما كان له أن يعرفها من البداية؛ وكأنها حلّت كاللّعنة وجاءت لتقوّض أركان ما حاول ترسيخه طوال حياته!

وتساءل في غمرة القلق والحيرة، هل لا يزال لديه متسع من الوقت والحيلة فيتمكن من احتواء القضية. وسأل المحقق مرتاباً:

- وهل أفهم من كلامك أني متّهم؟
- ليس الأمر كذلك. ما نطمح إليه فقط أن تساعدنا في حل لغز القضية بما تعرفه.
- ليس لدي ما أقوله، صدقني.
- أظنك تعلم أن هذا في غير صالحك.
- وما الذي هو في صالحي برأيك؟
- أن تجيب على أسئلتنا، وأن تحاول إفادتنا بأي شيء يمكننا من المجرم سريعا فنقدر على لملمة الموضوع.
- حسناً، أظن أن هذا هو المتوقع منكم. لكن هل استجوبتم زوجها السابق "فوزي العياشي"!.. قد يكون لدى هذا الشخص ما يقوله. أذكر أنها أخبرتني أنه هددها بالقتل إذا ما تزوجت ثانية، والظاهر أنها كانت تخشاه حقا..
- شكرا لتعاونك، وأرجو أن يفيدنا ما قلته..
- أتمنى أن تقبضوا على الفاعل سريعا. سيكون الأمر إذا ما تمَّ مريحا لنا جميعا. كذلك أرجو ألاّ يتم تسريب اسمي، وسأحفظ لكم هذا الصنيع حضرة المحقق.
- أظننا نقدِّر ذلك، ولا يحتاج الأمر إلى توصيات من لدنكم. سنعمل ما في وسعنا وسنحاول احتواء القضية بمعرفتنا. نحن في الخدمة دائماً.

أخيرا انصرف المحقق كالغمِّ عندما مدَّ له يده ممتناً وموّدعاً. وشعر بارتياح خفي بعدما وعده بحصر القضية بعيداً عنه.

***

كان لقاؤه بها مصادفة. ذهب لاستخراج وثائق عقار اقتناه حديثاً، فتمَّ صرفه إلى مكتبها. وجدها بصدد الحديث إلى أحدهم، واضطر إلى الوقوف منتظراً، وأخذ يتأملها على مهل.. مشتهاة. عامرة، وبنهدين يكاد يتفتق عنهما الثوب. ممتلئة الردفين، وبخصر أهيف، ومبدية عناية بالغة بمظهرها وأناقتها.

كان للقصة كلها أن تنتهي عند هذه النقطة، لولا أنها أبدت استعدادها للتكفل بأمر أوراقه التي لم تجهز بعد. وظنَّ أنها عرفت بشخصه ووظيفته، أو قد يكون في الأمر رغبة ما مضمرة ستتكشف له لاحقا.

عاد بعد يومين فوجد أوراقه جاهزة كما وعدته فشكرها على اهتمامها به. وكان قد سأل عنها وعرف أنها مطلقة. ولم يكن يظهر عليها ما يشي بالسقوط أو الوضاعة فأبدى تحمسه لها وإعجابه بها. ومنحها رقم هاتفه، وقال لها إنه بدوره سيكون في الخدمة إذا ما احتاجت لشيء. وسألها عن رقمها فقد يحتاجها لطارئ جديد. وأبدت تحفظها ولم يكن يبدُ أنها مرحبة، وأمام إلحاحه رضخت أخيراً وأعطته إياه. وقام بطلبها على ذلك المساء لكنها لم ترد عليه. وأصر على طلبها بعد ذلك مرات عديدة لكن دون جدوى. وأدرك أنها صعبة المراس، وأن الفوز بها يقتضي المثابرة وخططاً غير تلك التي اعتادها. ولم يجد بُداً من أن يقف على مكتبها مدعياً أمراً، وسألها لماذا لا ترد على هاتفه. حينها أدهشه ردّها الصارم وأفحمه..

– من يريدني يعرف مكتبي، ولن أغلقه في وجهه ما دام للأمر علاقة بالعمل؛ وأما الحديث على الهاتف فاعتبره تجاوزاً إلى خصوصية لا أرحب بها مطلقاً!

في تلك الليلة – ويذكر هذا جيداً – حلم بها. تصدَّت له في المنام بكامل بهائها وعفرتتها، وراحت تتقدم نحوه كعارضة أزياء فاتنة تكفلت الريح بمراقصتها. مثلها مشتهاة ومن ينالها لن يعرف الخسران، والفائز بها ستفتح له الجنان.

راحت تتدلل عليه وكأنما تتقصد إثارته، وعضت على إصبعه عندما حاول أن يلامس به شفتاها عضاً خفيفاً محبباً، ومدت براحة يدها على صدره تداعبه، وعندما حاول أن يضمها إليه قامت تهرب منه.

كان قد تهيج وخرج عن طوره وأخذ ينبح ككلب وهو يطاردها ويلاحقها مستدلاً عليها بشذاها، وصار الحلم مجرد مطاردة لعينة ومحاولة بائسة لاقتفاء أثرها. وفقط عندما هدّه التعب وكلَّت قدماه ولم يعد يقوى على السير خطوة إلى الأمام تبدّت وسمحت له بأن يصلها، وقبل أن يتمادى أكثر اكتشف يداً تهزه من الخلف، وكانت يد زوجته "منصورية" التي انبثقت من العدم. وبانت أنها مستعدة لتنكد عليه؛ بينما كانت مريم تنظر إليها بنظرات متواطئة، وكأنما الغرض كله كان للإيقاع به.

***

لم تكن زوجته منصورية إلاّ ابنة أحد القضاة المرسخين. التقاها أول مرة عندما زار والدها مع مجموعة من رجال القضاء في فيلته الفخمة بحي العقيد لطفي القائم في أعالي المدينة بعد إجرائه لعملية جراحية لتوسيع أوعية دموية قريبة من القلب.

رآها هناك عندما دخلت تقدم لهم القهوة والحلوى. ويذكر كيف تعلق بها نظر جميع من كان بالصالون. وتوقع أن تصير مطمع جميع العزاب الحاضرين، فقرر أن يسبقهم إليها.

لم تكن الفتاة تحوز مؤهلا كبيرا في الجمال، لكن تنكح المرأة أيضا لمالها أو نسبها. وكم كانت خيبته عظيمة عندما جابهه والدها بالرفض.

لقد حدثه وهو ينفخ أنفاس سيجارته في وجهه أن طلبه مرفوض. ولم يجد حرجا من أن يقول له بالحرف الواحد:

– من الأجدر لك أن تبحث عمن تناسب طبقتك ومركزك..

لا يحق له أن يحتقره!

هكذا فكر. فقد ساءه الازدراء الذي واجهه به. وبدا ناقما للاهانة التي مست شخصه، حتى فكر في غَضْبة أن يمد يده إلى أي شيء أمامه ويقذفه به. ودَّ لو يرى الدم يتفصد من وجهه ومن كل موضع فيه. ووجد نفسه يكتفي بالصمت. وقام خارجا، وهو يبلع الإهانة وكأن لا شيء حصل.

حز الرد في نفسه كثيرا. ولقد ظل يهتف بينه وبين نفسه:

– ليس هذا من العدل في شيء!

وراهن على جهده الخاص لينتقل إلى مرتبة العليين، حتى إذا صار قاضيا عاد على عقبيه وأعاد التجربة. وقال يواجه والدها:

– لقد صرت قاضيا، فهل ستبقى على رفضك؟

أرهقوه بالطلبات وأثقلوه بالشروط، لكنه أعتبر كل ذلك ضريبة مقبولة بالمقارنة مع القفزة التي كان يطمح إليها. واكتشف أن من تزوجها ابنة عز ومدللة، وما من شيء يصنعه أو يضعه أمامها كان يعجبها ويرضيها؛ حتى أنه في مرات عديدة تساءل، هل هو زوجها أم مارد فانوس غبي معني فقط بتلبية طلباتها التي لا تنتهي؛ فإذا ما تمرد ولم يفعل شكته إلى والدها، فهاتفه هذا الأخير ليؤنبه مذكرا إياه – في كل

مرة – أنه هو من أصر على الزواج بابنته، وعلى هذا فليس له الحق في أن يتمرد أو يحتج.

***

في ذلك الصباح نهض مرهقاً، وبقي في فراشه لفترة محاولاً استعادة صور مريم من خلال أحلام يقظة تفنن في صوغها وتخيلها، وبدا سعيدا كصبي صغير.

كم شدّته وأعجب بها، وكمُهرة مبهرة تمنى لو يقدر فيركبها، لكنها كانت دائما حروناً وأبت رغم ما بذله أن تستسلم له، كذلك لم يكن ثِقل منصبه يسمح له باللّف والدوران فقد يقع في الخطيئة الكبرى عندما يُناوِل من يخشاهم مرادهم ويجعل من نفسه نادرة عندهم.

وأبى أن يصرف نظره عنها، فمثلهُ لا يجب أن يُرفض. وحاول اختصار الطريق إليها ما أمكن. ووقف أمام مكتبها مرة أخرى متذرعا بحجة جديدة، وقال إنه يحتاجها لأمر؛ لكنها أصرت أن يحدثها في مكتبها أو لينصرف. واستحلفها بالله ألاّ تردّه، فالموضوع ضروري وشائك، ولها أن تختار مكاناً عاماً إذا شاءت. وفي مطعم عائلي محترم عرض عليها الزواج وإن دلل رغبته بجملة شروط كان يراها ضرورية؛ فالزواج سيكون عرفياً وفي أضيق نطاق، بلا حفلة عرس أو مدعوين. وأهم شرط ألاّ تفكر في الإنجاب منه لأن ذلك قد يقود إلى إشكالات هو في غنى عنها.

تمَّ كل شيء بسرعة بعد ذلك. حجزا لليلتهما الأولى بفندق "الشيراطون" في مدينة وهران، وما إن اختليا إلى بعضهما البعض حتى تضاجعا. فعلا ذلك بتوَّحش، ورغم دواء "الفياغرا" الذي أخذه كتسبيق

لم يصمد أمامها، وكادت روحه تغادره هاربة عندما أراد مجاراتها. وآثر الاستسلام وهو يحدث نفسه أنه وقع على شيطانة، ومثلها لا تجاريها عربدة كأس!

اكتشف فيها امرأة مثيرة للدهشة، فقد كانت مشتعلة على الدوام لكن دون إسفاف أو شهوانية داعرة ومبتذلة، تمارس الحب بالتذاذ وتفنن. وحدث نفسه أنه معها صارت كل المتع متاحة ومبذولة. وهنئ بها ما دامت كانت تكفيه عن كل غزواته، وصدَّق أنه انتقل إلى النعيم.

لكن ذلك النعيم لم يدم طويلاً، وفي الأفق كان هناك ما يشي بالتغيير..

بدأ النفور يتسرب إليهما مخاتلاً وفي هدوء، والمودّة التي جمعت بينهما لم تلبث أن تلاشت بسبب نقار ومشاحنات طفت على السطح وأصبحت واقعهم كل يوم. ولم تطق مريم الوضع الجديد الذي وجدت نفسها تحيا فيه، ولم تلبث أن صاحت فيه مختنقة:

– أنا زوجتك، ولست قحبة لديك تأتيها على آخر لحظة لتركبها ثم تغادرها على أول فرصة. عاملني كما يليق أو لينصرف كل منّا لحال سبيله..

ظنّها سترضخ وستستسلم للأمر الواقع ما دام يكفل لها الأمان والمتعة، ولا ترجو المرأة أكثر من ذلك؛ لكنه وجدها تواجهه بعد فترة بالحقيقة التي ظلَّ يخافها، وفجرت أمامه مفاجأة من العيار الثقيل، وهي تقول له في مهابة:

– أنا حامل.

ولم يجد ما يقوله غير أن يهتف فيها مختنقاً:

- ولكن ماذا عن الوعد الذي كان بيننا؟

ردَّت عليه في تحد وثقة:

- ما حصل قد حصل. لا تخشَ شيئاً. أنا أخليك من كل مسؤولية، فالذنب ذنبي وسأتصرف بمفردي..

هذا ما ظلَّ يخشاه طوال الوقت، وحتى قبل أن يعرفها. لقد كان ينتظر من كل واحدة يقيم معها علاقة، أن تقوم في الغد لتبتزَّه مُدَّعية حملاً منه؛ فلم يصدقها..

كان ناقماً عليها، فما كان يجب لها أن تسمح لهذا الأمر بأن يحصل، وتمنى لو تكون كاذبة، وتصرفت بهذا الشكل طمعاً في افتعال مشكلة والانفصال عنه. وحار كيف يتصرف وماذا يفعل، وغشيَّه فزع حقيقي، وظلَّ يخشى الأيام في تواليها، فمصيره بات بِيدها ورهن ما ستقدم عليه.

كانت قد هجرته لكنه بقي يتردد على عشهما الزوجي علّه يجدها هناك، وحدث نفسه قائلاً:

- إنها امرأة لا تشبع وستعود لأجل السرير على الأقل..

وعندما لم يجدها تفعل قرر ألاَّ يهتم. وفي ذلك أكبر دليل على أنها تدبرت أمرها. وزال عنه توجسه، واستعاد بعض الأمان لولا وقوف المحقق أمامه، وما ردده بشأنها.

إنه أمام زوبعة جديدة لكنه لن يسمح لها بأن تهزّه أو تعربد في قراره مهما كان.

***

كانت عائلته وعائلة أعمامه الأربعة تسكن نفس الحوش وتقتسم نفس المطبخ ونفس بيت الخلاء. ولقد ظل طول الوقت يعتقد أن نعيمة زوجة عمه الأصغر عاشور تكن له ضغينة ما لم يقدر أن يقف على أسبابها الظاهرة، ولا بد أنها تمقته مقتا شديدا فلقد كانت تختلق دائما حججا لتعنفه. وكانت تقوم بضربه على أدنى هفوة تبدر منه، حتى إذا فعلت عادت بعد ذلك فاعتذرت وأخبرته أنها نادمة، وكبادرة على حسن النوايا كانت تأخذه بين أحضانها وتنفحه ببعض القبلات التي يشعر بها حارة على وجهه وشفتيه.

كذلك كان مسكونا على أيام مراهقته الأولى بأجساد الفتيات العذارى، شغوفا ببنات أعمامه، مهووسا بالملابس الداخلية لهن. يظل يبحث في كومة الثياب المعدة للغسل في "بيت الغسيل" عن "كيلوت" يتشممه. وكاد يضبط مرة متلبسا من طرف نعيمة، لولا أنه سارع في اللحظة المناسبة إلى إخفاء ما كان بيده تحت ثنايا سرواله.

وقفت على رأسه وهتفت تسأل:

– ماذا تفعل هنا؟

كان يكفي أن تنظر إلى عينيه لتتأكد من أنه كان بصدد فعل ما مريب. ولقد شدَّته من معصمه وهزته بعنف، وصاحت فيه:

– قل لي ماذا تخفي! هيا أجبني بصراحة، أو تعال هنا لأفتشك..

وصار منصور يصيح ويردد أن تتركه وشأنه، فلا سلطة لها عليه. وعندما تيقن أنها جادة أخذ يبكي مرتعبا وحانقا. واستغل الفرصة عندما لانت قبضتها، وسحب ذراعه، وأطلق رجليه للريح.

كان قد ركض بعيدا قبل أن يفكر في التوقف واسترجاع أنفاسه. واحتار ماذا يفعل بالكيلوت، ولم يكن مستعدا للتخلي عنه فكأنه كنز يخصه. وحفر في الأرض ودفنه يدسه، ثم وضع علامة على المكان حتى إذا ما رغب فيه ورجع ثانية اهتدى إليه بسهولة.

عند عودته إلى البيت خصَّته والدته بعلقة مناسبة. وحتما أن نعيمة من شكاه إلى أمه التي أخذت تحاججه، وتريد إجباره على الكلام ومعرفة الشيء الذي سرقه وراح يخفيه. والغريب أنه كعقاب له قامت باحتجازه في غرفة الغسيل لبقية اليوم. ووجد نفسه ثانية مع الملابس التي يحبها والروائح الشاذة المنبعثة منها، حتى أنه قضى كل وقته هناك منتشيا متيقظا ومتحفزا.

تحسس كل القطع التي استهوته براحة كبيرة. وشعر لأول مرة بالاشتعال فيه وبفورة عظيمة تجتاحه. واندهش عندما انتصب عضوه بشكل لافت ومثير لم يعهده. وكمن استُفِز أخَذَ يشد بالملابس الداخلية على عضوه ويدعكها عليه. واكتشف أنه قذف سائلا هلاميا غريبا، ووجد نفسه يقف على سر خطير لم يكن يدريه.

بعد المغيب بقليل سمع وقع أقدام قادمة باتجاهه. وفتحت عليه الباب زوجة عمه. وتوقع أنها لا تزال حاقدة عليه بعدما هرب منها فخشي عقابها، لكنه وجدها تخاطبه بلين قائلة:

- هل ترغب في المغادرة أم تريد قضاء ليلتك هنا؟.. ليكن في علمك أنا من أشار على والدتك أن تحتجزك في هذا المكان. أظنني أفهمك، وأعتقد أن الأمر بهذا الشكل يناسبك ويحوز رضاك. هيا تعال إلى حضني الآن. أريد أن أقبلك. سأسامحك، وأريدك أن تسامحني بدورك..

لم يكن مؤهلا ليستوعب إشارتها فاستغرب لغتها ولم يبادر بشيء. ثم لا يدري كيف حصل ذلك؛ فقد عادت لا تنتبه إليه، أو أنها راحت تتجنبه. ولعل الأمر ارتبط بانجابها لمولودها الأول. ثم وهو يواصل دراسته الجامعية بالعاصمة وصله نبأ طلاقها من عمه عاشور. والحقيقة أن زوجها كان يود لو يقتلها، وقد أقسم بأغلظ الأيمان أن أبناءه ليسوا من صلبه. قائلا بالحرف الواحد:

– ليحترق أبناء الزنى مع أمهم في الجحيم!

***

دعَوه إلى كأس فرفض. وكان يعتبر الخمر من الموبقات التي لا يجوز الاقتراب منها فلم يشاركهم الشرب، واكتفى بأن أكل بشراهة. تبادل مع شلّته الحديث في أمور عامة وأخرى تخص قطاع العدالة، وتمكن وسطهم أن ينسى قلقه وما عكر عليه صفو يومه. وسأله إبراهيم كيف كانت محاكمات اليوم، وكان يعرف أنها كانت جلسات طارئة لمحاكمة المخربين والذين قاموا بالاعتداء على الممتلكات الخاصة والعامة في حمّى الاحتجاجات التي مسّت المدينة ومدن أخرى. وأخبره منصور، أنه اضطر إلى أن يكون صارماً، وأنّ جلَّ أحكامه كانت في غير صالح المتهمين بعد التوصيات التي وصلتهم من جهات عليا، وطالبتهم بأن يضربوا بيد من حديد على المعتقلين.

وهتف أحدهم:

– قال لك قطاع العدالة حر ونزيه..

وردّ آخر:

– إيه، سمعت بهذه النكتة، بدوري..

وضجوا بالضحك..

كانت على طاولة بقربه تجلس فتاتان، ولقد أخذت إحداهما – وكانت تلبس سروال جينز حائل – تبتسم إليه طوال الوقت وبوقاحة. ووجد أن نظراتها تشي برغبة ما، فأشار لها، ثم قام ليحجز له غرفة في الفندق؛ فقامت بدورها وراحت تنتظره على السلم المؤدي إلى الغرف.

أشار إليها برقم الغرفة، وقام يسبقها إليها. ولم تسمح له بلمسها، وأصرّت أن تقبض قبل أن تصعد معه إلى الفراش. وقالت بعد مناوشة بينهما:

– أنت مترهل بزيادة، وأخاف بعد أن تركبني أن أختنق وأموت فلا أقبض..

وضحك يسري عن نفسه..

وربما كان الموقف يستدعي ذلك؛ لكن في تلك اللحظة أيضاً عنّت على باله صورة قديمة جداً. معلم مدرسته يصيح فيه يوّبخه ويستخف به، ويقول له كارهاً:

– كان الأسلم لجلف حقير مثلك أن يبقى في قريته، ويكتفي برعي ماعزهم هناك. مُسخت المدن بقذارتكم أيها الأعراب..

ولأن الإهانة آلمته حينها، فقد أخذ في البكاء، وأغاض تصرفه معلمه، فراح يضربه بعنف وكأنه يعوِّل على قتله..

***

رنَّ هاتفه، فنظر إليه كارها وهو يحاول أن يستطلع من يكون المتصل. ووجدها أمّه، فردّ عليها وقد بان عليه بعض الانزعاج.

كانت تنشج باكية، وهتف يسأل متوّجساً:

- ماذا هناك؟
- والدك..
- ما به؟
- توفي قبل قليل..

وكأنه النحس. ماله وأخبار الموت هذا اليوم!

كانت الفتاة لا تزال تنتظره على السرير عارية تماماً، ورغم أنّ رغبته فيها كانت قد خمدت، فقد تساءل كيف يتصرف معها!.. وخمّن فيما نقدها إياه، وفكر هل عليه أن يسترجع ماله ما دام مضطراً للانسحاب!

الناقوس 4
فَوزي العَيّاشي

بعد الغداء وقف "فوزي" أمام المرآة كأنثى تتحضر لموعد هام..

رجَّل شعر رأسه بعناية. وضع عطرا. نزع عنه كل ما كان يلبسه وتعرى كما يوم ولدته أمه، ثم ابتسم إلى نفسه في المرآة راضيا تماما على وضعه، وقام ينادي على زوجته نصيرة لتلتحق به على السرير.

إنه – وعن تجربة، وبعد خبرة – يجزم أن لا واحدة تقدر على مجاراته وإخماد نار شهوته المتأججة والتي تضطرم بين ثناياه كل مرة إلا زوجته السابقة مريم. يدرك هذا ويعيه تماما، وإن بقي شيء يحفظه لها عن فترة زواجهما والذي دام سنتين كاملتين، فهو هذا.. لقد كانت بدورها لا ترتوي ولا تشبع، مسعورة ومجنونة مثله. وواقعة عرس أخيه خير شاهد على ذلك، وما حصل ليلتها نادرة لن تنسى وطرفة يشهد عليها كل من حضر العرس، وستظل راسخة في ذهنه إلى الأبد.

يذكر كيف استفزه مشهد دخول أخيه العريس على عروسه الجديدة، حينها اقترب من مريم التي كانت تجلس بين النسوة المتحلقات يرقصن ويصخبن ويغنين، وأسر إليها بأمر، وما لبثت أن لحقت به على الأثر. ولأنه لم يكن هناك من مكان يختليان فيه، فقد لجآ إلى دورة المياه، وهناك تضاجعا بلهفة وحب، وتواصلا أكثر من مرة، غير عابئين بكل من راح يطرق عليهما باب الحمام يريد منهما الخروج لقضاء حاجته.

كلاهما لم يهتم بغير شهوته المتقدة، ولأنهما كانا كمن يفعل ذلك أول مرة، ولا يعرفان كعادتهما ارتواء ولا شبعا، فقد جعلا كل من حضر الزفاف ينتبه إليهما، وصارا تسلية الجميع ليلتها.

الآن يدرك أن دعوته التي لم تلبها زوجته الثانية نصيرة إلى هذه اللحظة، وقد ظلت مشغولة عنه بإنامة الصبي المولود قبل أشهر قليلة، وكان لا يزال في حضنها يبكي بعدما لم ينفع معه شيء ولم تجعله أي حيلة يخلد إلى النوم؛ لو كانت قد وجهت إلى مريم، لكانت قد طيّرت الصبي في السماء غير مهتمة، وجاءته على أحر من جمر..

***

- يا شيطاني العزيز، اصبر قليلاً ريثما أنيم الصبي!

كذلك قالت نصيرة تخاطب زوجها فوزي الذي لم يطق صبرا..

كانت أوّل مرّة نادته فيها باسم "شيطاني العزيز" في عيد ميلادها الأول معه. كانت تنتظر منه ليلتها هديتها، وتفاجاءت به يقف أمامها عار تماماً، ويشد بشريط أحمر للهدايا عضوه المنتصب، ويقول لها:

- ما رأيك في هذه الهدية؟

جفلت غير مصدقة ما رأته عيناها، ثم لا بد أن الهدية قد راقت لها لأنها تقدمت منه وقدمت إليه قبلة طويلة طازجة، ومكنته بعد ذلك منها، وسمحت له بكل المتع المتاحة امتناناً، وقذف بدوره أكثر من المعتاد إكراماً لها.

كان مربوع القامة ويميل إلى السمرة منه إلى البياض، وكان كثير العناية بمظهره، مسرفا في ذلك منذ تعلم الركض في شوارع المدينة خلف البنات. وكان يعتقد أنه يملك آلة حرث كاملة لا يضاهيها في كفاءتها

شيء، وكان جلّ حديثه مع أصدقائه حول الجنس وتشعباته. يحاول في كل مرّة أن يظهر بمظهر العارف والخبير، وللتجارب التي خاضها القول الفصل، وكل من عرفه وعرف وصلاته يحكم بهذا.

إذا ما بدأ الكلام يجب على الجميع أن يصمت، وإذا حاول أحدهم مجاراته، يهاجمه ويفحمه بقوله:

– هل تعرف كم ركب هذا من واحدة؟

يقول ذلك وهو يشير إلى عضوه غير عابئ إلا بالحديث الذي بدأه، ثم يواصل في ثقة ويقين:

– فإذا كنت لا تعرف فمن الأفضل لك أن تصمت!

وهناك من يصمت على مضض، مختنقاً بتطاوله عليهم وادعائه الكاذب، معتبراً إياه شخصاً فضاً لا فائدة من مجاراته، وهناك من يصمت متصيداً عثراته وهو يسرد عليهم مغامراته، غامزاً من حوله في لؤم، ومعتبراً إياه شخصاً أخرق وبائس.

***

كادت أعصابه أن تفور.. لا تجري أموره كما خطط لها أو كما كان يرغب؛ فلقد أقلقه الصبي الذي يأبى النوم، ثم ها هو طرق مزعج وعنيف على باب الشقة يوتره، ولا بد أن توفيق ابنه البكر قد عاد من اللعب في الشارع وسيفسد عليه بقية يومه.

وجد نفسه متعلقا بالطارق على الباب، وراح يصيخ إليه بكل سمعه. وما لبث أن أتاه صوت أمه من الرواق ينادي عليه مرتبكا ومذعورا:

– فوزي، الشرطة في البيت. إنها تريدك..

عقدته المفاجأة، فلبث مسمرا مكانه، ثم مرّ بذهنه أنهم سيسعون إلى اقتحام غرفته عنوّة، وقد تتعرض زوجته العارية إلاّ من لباس خفيف يسترها إلى نظراتهم الوقحة وغير البريئة، وسيتكشف عرضه. وفي وثبة كبيرة قام إلى الباب وأدار المفتاح فيه يغلقه، وهو منتبه إلى الأيادي التي بدأت تتحسس أكرته تريد فتحه من الخارج.

هتف يزعق:

- لن أسمح لكم بالدخول. الزوجة عارية.. يجب أن تنتظروا حتى أخرج إليكم!

كان في حركته النزقة تعبير عن رفض.. تمرد.. مقاومة.. عصيان.. وهي ردود مرفوضة لدى أجهزة الأمن، وجب في قاموسهم التعامل معها سريعا وبحزم للإطاحة بها.

لقد اعتقدوا أن هناك مناورة ما منه، فعمدوا إلى اقتحام الغرفة مستعملين القوة، حينها ركن إلى الباب بكل ثقله يسده غير منتبه إلى عريه. وعندما أدرك ألا حول له أمام قوتهم الغاشمة أخذ يردد في خور:

- يا أنذال، إياكم أن يدخل أحد. كرامتي ليست هينة..

ثم راح يوجه الخطاب إلى زوجته مستعملا عبارات قاسية:

- و هيا أنت إلى السرير حالا. يجب أن تستري جسدك، وإياك أن تمكنيهم من رؤية شيء منك..

أمام ريحهم العاتية بدأت ملامحه بالذبول، وخرَّ هشا على ركبتيه، وتأملهم منكسرا وهم يقومون باكتساح الغرفة. وبدأ يبكي بمرارة ويعوي كذئب جريح وهم يقفون على رأسه كالأشهاد، يسألون:

- هل أنت فوزي العياشي؟

سد عينيه براحتي يديه، وحاول مداراة سقوطه بأن أخذ يبكي بمرارة كمن لا يريد أن يرى عجزه، أو كان يتصور متوهما كما الصبية الصغار أنهم بدورهم – إذا ما قام بذلك – لا يمكنهم رؤيته ورؤية خزيه!.. وقبل أن يستفيق من دهشته وجدهم يأخذونه عنوّة.

قبضوا عليه فاستسلم لهم وسار معهم دون أن يعاند، وتساءل أثناء الطريق لم يأخذونه! وخمّن أنهم ربما قبضوا على أحدهم بتهمة حيازة الحشيش، وأتى في التحقيق على ذِكر اسمه فورطه معه.

دُفع إلى الحجز دون أن تُوّجه إليه أي تهمة في اليوم الأول، ولم يتسن له معرفة ماذا يريدون منه، وبقيَّ إلى الغد رهين الحيرة والقلق والصمت، وعندما أنهكه التعب والإرهاق أغفى، ولم يستيقظ إلاّ على صرير الباب الحديدي وهو يفتح.

في أحد المكاتب طاله المحقق بنظرات حاقدة، وقال له:

– إلاّ هذه المرّة. أؤكد لك أنك لن تطلع من هنا أبداً..

ونطق مرتعباً ومتوجساً:

– لكن لماذا؟ ماذا هناك؟

وزمجر المحقق يسأله:

– هيا قُل واعترف كيف قتلتها..

– قتلتُ من؟!

– زوجتك السابقة، أم ستدَّعي أنك لا تعرف بموتها!

اختنقت أنفاسه وزاغ بصره ونظر إلى من يقف أمامه مستغرباً حديثة كله..

هل يعني ما يقوله، أم أن في الأمر لعبة ما!

وبقدر الخوف الذي كان يتلبسه، تلبسه الحزن. ونزلت منه دموع أنكرها عليه ولم يصدقها من كان يقوم بالتحقيق معه، فقد شدّه بعنف وصفعه وهو يحاول إجباره على الاعتراف بقتلها..

– لكنّي لم أقتلها، وأنا أقول الصدق..

وأعيد إلى الحجز، ثم بعد ذلك استجوب أكثر من مرّة، وظنَّ أنهم لن يتركوه وصدق أنه هالك لا محالة إلى أن فتح آخر – غير ذاك الذي اعتاده – الباب، ليقول له:

– هنيئاً لك. يمكنك الخروج الآن..

وهتف غير مصدق:

– هل ثبُتت براءتي لديكم!

وفي غير ما اهتمام هتف الشرطي:

– تصوّر أننا نطلق سراحك دون أن نعرف لماذا!

***

تعرف فوزي على مريم أيام الشباب الطائش والوقوف على أبواب الثانويات. لاحقها لمدّة طويلة دون أن ترضخ أو تستجيب له. كانت حرونا أو تحاول أن تظهر جادة، ولم ترحب به إلاّ عندما دعاها إلى مغامرات غير منتظرة في صحبته.

يذكر كيف قبلت بالركوب خلفه على دراجة نارية، ثم إنها جرّبت سياقتها، ومرة زارا البحر على متن سيارة تاكسي، ومرة دعاها إلى حفلة راقصة أقامها بعض الشباب على طريقتهم البوهيمية.

وجدت فيه فرصتها في الحياة والانطلاق بعيدا عن عالمها الرتيب والمبتذل فرحبت به، وكان يعرف كيف يقوم بإبهارها فتمكن منها.

وصار يدعوها هنا وهناك حتى استقرا على مكان معين، وكان خلفية محل صديق له.

كان مجرد الإدراك بأنهما أصبحا لوحدهما يجعل نار شهوته تتأجج. وكان في كل مرة يلتقيان فيها إلاّ ويعمد على إقناعها بالاستسلام له، ولم يحاول أن يجبرها أو أن يستعمل العنف معها متصوراً أن ذلك قد يخيفها ويجعلها تخشاه.

أظهرت صرامة بالغة كلما التقيا، وظل يترجاها في قبلة واحدة، وكانت قد سمحت له بها بعد مناشدات عديدة، وأرادها مرة أن تفتح فمها ليلقم لسانها، فمنحته ذلك بكثير من العبث. وفي مرة طوّق جدعها وحصرها في إحدى الزوايا وأخذ يجسها بجنون، وكانت قد بدأت تفقد زمامها عندما وضع يده على وسطها، وتوّسلته أن يبتعد عنها مطلقة تهديداً ووعيداً صريحين، ثم لان صوتها فجأة وضعف واستكان، وتيقن أنّه قد تمكن منها أخيراً.

لم تكن تسمح له بأن يعرِّيها، لكن مواضع الإثارة لديها كانت كلها ملك يديه وطوعه. وتكررت هذه الحالة في أكثر من فرصة، ووضح أن الأمر صار يلذ لها ويسليها، ثم سمحت له بأن يعرّيها وتمكنت أن تفعل نفس الشيء به.

كانت تقوم بتعريته والعبث بجسده دون أدنى حياء أو خجل، وصار موعدهما في خلفية المحل موعدا ثابتا، يدخلانه فيبدآن في تعرية بعضهما البعض مباشرة وكأنهما على اتفاق كامل، ثم بات يلذ لهما البقاء عاريين حتى وإن كانا غير معنيين بممارسة الحب.

وفي مرة استفزته لما وجدها في صحبة زميل لها. أخبرها أنه لا يوّد أن يراها في صحبته ثانية، لكنها قالت له مظهرة قلقا كبيرا وثورة:

– إنه زميل دراسة، وبين دراستي وزملائي وبينك خط أحمر!

استشاط غضباً وتوّعدها، وفي موعدهما المعتاد ركبها بشراهة واندفاع وقام باغتصابها عنوّة وشماتة فيها. وكانت "الفأس قد وقعت في الرأس"، فجلست على الأرض شبه منهارة لا تدري كيف تتصرف؛ وأما هو فأدرك أنه أخطأ، وظلَّ يترقب في خوف ما ستقدم عليه، ووجدها بعد يومين تتصل به ليعودا إلى خلوتهما وكأن شيئاً لم يحصل. بل لقد أظهرت سعادة بالغة لأنها ما عادت عذراء، وعاد بإمكانها أن تشعر به كما يليق بامرأة كاملة.

لم يدم الأمر كذلك طويلاً، إذ وضحت عليها أثار حمل لم يكن متوقعاً، وسارع الأهل إلى لملمة الموضوع وحصرِه في أضيق نطاق.

خشيت عائلتها من الفضيحة، وخاف عليه أهله من السجن، وتوصلت العائلتان إلى اتفاق يقضي بتزويجهما على أول فرصة. وجُهز للعرس على عجل، واحتفي بالعروسين كما يليق وأكثر.

بعدها حاولت مريم أن ترسخ في ذهنها فكرة أنها ستغدو أمّاً، وحاول فوزي أن يرسخ في ذهنه فكرة أنه سيصبح أباً، ودخلا عالماً جديداً بدأت فيه مسرات الحياة تخفت وينابيع الفرح تجف.

الحياة الزوجية كانت شيئاً آخر مختلفاً. لم تكن فراشاً وحضناً، وهي لم تشعر بالراحة في البيت الذي انتقلت للسكن فيه، وكانت وضعية أسرته أدنى بكثير من المستوى الذي اعتادت على العيش فيه، وهو وجد بانتظاره مسؤوليات وتكاليف لم تخطر له ببال ولم يعرف كيف يواجهها، خصوصا أنه كان باق إلى ذلك الحين بلا عمل ثابت. وصار كلاهما كارهاً للحياة الزوجية التي لم تكن مرادهما، وقد ولجاها دون إعداد أو تخطيط مسبق.

إن أغلب مصروفهما كان يأتيهما من عائلة مريم التي لم تكن تبخل على ابنتها بشيء، وصار فوزي يطالبها بالمال كلما احتاجه وكأنها هي المسؤولة على إعالته. وراح ينغمس أكثر فأكثر في جلسات الشرب والحشيش هارباً من وضع لم يتحمله؛ ولم تكن تنفع فيه صرخاتها ولا توسلاتها وهي تحاول أن تثنيه قائلة: "إن ما تنفقه في الشرب والحشيش يمكنه أن يسدّ لنا باباً"، وبدا أنه صار لا يهتم.

وأخبره صديق له أنه شاهد زوجته تركب في سيارة مع أحدهم، فكذّبه وضربه وشجَّ رأسه، لكن نار الغيرة والشك كانت قد تسربت إليه.

لقد جعله يقلق، وأخذ يرقبها ويتجسس عليها، ويحاول تصيدها، لكنه لم يضبطها متلبسة بما يشي بسوء؛ ولا بد أن يكون الصديق كاذبا!.. لكنه خمن أيضا وقد أثقلته الوساوس أنها قد تكون حذرة بشكل رهيب.

ومرّة خرجا إلى العشاء، فانتبه وهو على طاولة الطعام أن أحدهم قد أخذ يشير إليها. وتعللت قائلة أنها بحاجة للذهاب إلى الحمام فسمح لها، لكنه قام على أثرها وتبعها، وضبطها بالجرم المشهود لما وجد الشاب يناولها ورقة ويدسها لها في قبضة يدها.

انتابه غضب غير هين ونادى فيه جنون مسعور، ولم يقدر أن يتمالك نفسه بعدما هاجت كل غرائزه البدائية فهجم على السيد وكاد يقتله لولا تدخل صاحب المطعم وكل من كان هناك، وأما زوجته فقد فرّت إلى منزل والديها.

لم يطلها، ولو حصل ذلك لكان قتلها، فلا شيء يمحو الخيانة ولا شيء يمكنه أن يقوم مقام الشرف. هكذا ردد أمام القاضي بعدما تدهورت الأمور وتعقدت، ولم يعد هناك مخرج إلاّ بالطلاق.

إن ابنهما "توفيق" والمولود حديثا كان العقبة الأساسية أثناء تسويتهما لمنازعات الطلاق. وحاز الأب – وعلى غير المتوقع – حضانة الطفل، وشكل هذا إحباطا كبيرا للأم. ولقد سمع أم طليقته في قاعة المحكمة وبعد النطق بالحكم تقول لابنتها: "دعيه يشبع به!". والظاهر أن القاضي تعاطف مع الزوج واعتبر الزوجة مذنبة وغير مسؤولة.. ثم ألم يرضي الحكم غرور هذه الزوجة التي لم تتقدم بنقد له!.. ألم يوافق رغبتها المضمرة وقد مكنها من استعادة حريتها كاملة هي التي لم تستسغ فكرة الزواج إلا مضطرة!

بعد طلاقه منها ظلّ لفترة يتخبط، لا يدري ماذا يروم. وبعدما صار يفتقد إلى المائدة الدسمة التي كانت توفرها له كل ليلة فكر في إصلاح ذات البين بينهما واستعادتها. ولأنه جاهر بهواجسه لأمّه، رأت هذه الأخيرة أن تزوّجه من أخرى حالاً.

كان مفلساً غير قادر على تحمل نفقات زواج ثان، واضطرت أمه أن تبيع ما تبقى لها من حليّ ومجوهرات، فالمهم أن يفوز ابنها بواحدة من اللواتي يطلق عليهن اسم "بنات العائلات"، امرأة لا تريد غير الستر وحياة مستقرة في كنف رجلها.

ثم جاء ابنه توفيق ليخبره أن أمّه تنوي الزواج ثانية، وأن هناك من تقدم إليها.

طار عقله، وأصر أن يعرف من يكون هذا الوقح الذي سوّلت له نفسه أن يقوم مقامه ويكون زوجاً لها بعده. وفكر أن يعرّج عليها في العمل ليثنيها، ثم اقتنع أن عليه الانتظار – ولو متحرقاً– إلى نهاية الأسبوع.

كانت تتسلم منه ابنهما توفيق الذي كان تحت وصايته كل نهاية أسبوع لتقوم بإعادته مع كل بداية له. وكان ينتظرها ولا يفوّت هذين اليومين إلا نادراً أو لطارئ، وكان يحرص على الالتقاء بها خلالهما، فيظل مسمراً في البيت متعذراً بأي شيء أو يقوم بانتظارها عند مدخل البناية.

إنّ مجرد الوقوف أمامها يزلزل كيانه كله ويجعل دمه يفور. كان لا يزال يحبها، ويعيش على أمل مبهم في استعادتها. وتصادف أن عائلته كانت كلها خارج البيت في ذلك اليوم.

إن من رتب لهذا اللقاء الشيطاني كان يقصد أن يحصل شيء من ورائه لا محالة!

خفق قلبه كما لو كان مراهقاً، وفكر أن يدعوها إلى الداخل. وإذا ما استجابة فإنه سيضمن ساعة مجنونة لا ريب.

لا أحد يحسن تقديم المتعة مثلها. ولا شيء يعادل ركوبها، فلقد كانت – وكما لا يزال يذكر– بارعة في لعبة الفراش ومتفردة، ولا يمكن لأي امرأة أن تضاهيها.

دعاها لتتفضل، فرفضت. ولم يهتم بالصبي الواقف بينهما، ومدّ يده يحاول سحبها إلى الداخل، لكنها كانت قد انتبهت إلى حركته فقامت بسحب يدها في الوقت المناسب، فلم تتلقف يده إلاّ الهواء.

وراحت تهبط الأدراج هاربة فكأن اللّوعة لا تعنيها. وضاق صدره، وقام يلحق بها، وهو يردد غير عابئ بشيء:

– لا أزال أحبك أيتها الجاحدة، فلماذا تتعمدين إهانتي؟

– الفرصة كانت بين يديك وأنت من ضيعها.

– لا تقولي ذلك، فكل شيء قابل للإصلاح..

- هذا في قاموسك أنت فقط.
- لن أسمح لك بالزواج من آخر، ومهما يكن الثمن. ليكن في علمك!
- إذن أرني ماذا ستفعل!
- سأقتله وأقتلك..

***

ككلب متشرد وضال ظل يشعر..

خرج من الحجز حزيناً وتعيساً وتالفاً. وتمنى لو يجد أصدقاءه مجتمعين في وكرهم أسفل العمارة، فما عاد له أمل إلا في سكرة وسيجارة حشيش..

وجد الشوارع غاصة بالمحتجين، وكانت الجموع تطوّقها العساكر من كل جانب، وكان رجال الأمن مبثوثين في كل مكان وزاوية، وتساءل هل طارت فرصته، وهل عليه العودة إلى البيت!

مظاهر الاحتجاج لم تكن لتعنيه يوما، ولا يذكر أنه خرج في مظاهرة إلا في مرتين، وكان خلالهما طفلا.. المرة الأولى أيام اجتياح القوات الأمريكية للعراق بعد احتلالها الكويت في الحرب الأولى، حينها دخل عليهم صباحا مدير المتوسطة التعليمية التي كانوا يدرسون بها ليخبرهم أن جميع التلاميذ والمعلمين معنيون بالخروج على تمام الساعة العاشرة في مسيرة للتنديد بالغزو الأمريكي للعراق.

اكتسحه الحماس يومها، ورغم أن العراق إلى وقت قريب لم يكن يعني له أو لسواه أكثر من بلد عربي تكاد تكون الصلة به معدومة، إلاّ أن شخصية رئيسها على تلك الحرب أخذت تلهب وتلهم خيال

الجميع، فكتبت الأشعار حوله، وغنى كبار المغنين له؛ وحتى مواليد تلك السنة غالبيتهم حملوا اسم "صدام حسين" تيمنا به..

لقد ظل على تلك المسيرة يردد مع الهاتفين: "يحيا صدام.. الموت لأمريكا.." و"يا عراق، يا حبيب.. دمر، دمر تل أبيب". وكان يشعر بنفسه مجيشا بمشاعر صادقة غير وهمية أصيلة تنبع من انتمائه وعروبته، وود يومها لو ينتصر العراق على أعدائه، ولا يهم أن يكون ذلك من أشراط الساعة، وهو بعد لا يصلي ولا يقوم بواجباته الدينية كما يلزم.

أما في المرة الثانية فقد خرج لمناصرة "عباسي مدني" والجبهة الإسلامية للإنقاذ.. يومها وجد نفسه منساقا في عفوية مع الجموع دافعه الصدفة والفضول، مرددا مع المرددين: "لا شرقية، لا غربية.. دولة، دولة إسلامية" و"عليها نحيا، وعليها نموت.. وفي سبيلها نجاهد ونلقى الله". وإن ظلت مشاعره مرتابة، للانقسام المجتمع حينها، فقد كان هناك فريق يطمح إلى تغيير جذري على يد الجبهة الإسلامية، وفي مقابله كان فريق آخر – ومنهم والده – يرى أنه إذا وُلِيَّ الإسلاميون عليهم فسوف يخسرون فرصتهم في الحياة والانطلاق ما دام هؤلاء وكما ينادون سيعمدون على كبح كل مشاعر المرء الحية، ويقومون بمصادرة كل الرغبات الإنسانية، فكأنما جاؤوا ليبشروننا بالعصور المظلمة وينقلوننا من قبر إلى قبر.

ولا يزال يذكر أنه ما إن ظهر في الجموع من يهتف وهو يشير إلى السماء أن أنظروا إلى عبارة: "لا إله إلا الله، وعباسي حبيب الله" وهي تزين صفحتها، حتى غمرتهم البلبلة واهتياج مثير، وحمل الجميع برؤوسهم إلى السماء في هول من أدركته القيامة. وأمام هذا الخطاب البالغ الخطورة والإفصاح والذي يجب عليهم أن يشهدوه، انساقوا

مرددين: "الله أكبر، الله أكبر.. لقد ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا"..

لقد ظل بصر فوزي عالقا بصفحة السماء دون أن يعثر له على شيء من تلك الكتابة، وهاله الأمر وابتأس وفكر أن يطلب مساعدة من هم بجواره، فأن يستدل على العبارة شيء مهم. لكنه استحى بعد ذلك، وخشي أن يُنظر إليه ناقص إيمان. وعلى حال عودته إلى البيت أخبر والده بالقصة، لكن والده الذي أرسل ذقنه ولحيته بعد ذلك، قال له في تلك المرة وفي تصلب وعناد: "لا تقل لي إنك بدورك شاهدت العبارة، لأني حينها سأقوم بطردك من البيت. شعبنا من قوم "تُبّع"، أي ريح تهب تسحبه في أثرها"..

***

أبى العودة إلى البيت، فعندما يعم الطوفان يصير كل شيء سواء..

وفي القبو العمارة وجد شلته كلها مجتمعة: بلقاسم وبوعلي وفتحي وزبانة. وما لبث أن مرر بلقاسم لفوزي سيجارة حشيش كان قد انتهى من لفّها، وهو يقول:

- أهلا بعودتك، افتقدناك..

وتناولها منه، وهو يقول:

- بل هذه التي افتقدتني وافتقدتها..

أخذ نفساً عميقاً منها، ومررها بدوره إلى زبانة الذي كان على جانبه، ثم أكملت السيجارة دورتها..

- كنت أخشى ألاّ أجدكم في هذه الليلة غريبة الأطوار.

- لم نعد من أهل هذه البلاد منذ فترة طويلة، فهل علينا أن نهتم!
- ما عاد يصلح شيء هنا..
- إيه، إنها "دعوات" الأجداد عليها..
- لا علاج لما أعاني إلاَّ بالهجرة. سأحاول أن أجرب فرصتي هناك..
- أعرف قاربا جاهزا للإقلاع، فهل لديك المال اللازم؟
- وكم يكلف الأمر؟
- ليس أقل من سبعة ملايين سنتيم!
- سأتدبرها في كل الأحوال..
- إنه سيقلع غدا بعد المغيب، فإذا توفر لديك المال قبل ذلك أعلمني لأرتب لك موعدا مع صاحبها؟
- سيكون المال متوفرا غدا. ثق..
- آه، إنك حتما تنام على خزنة كاملة ولم تخبرنا..
- سأتدبره؛ قلت لك، وإن اضطررت إلى القتل.

وبعد فترة انسل بوعلي، وقام فتحي في أثره ولحق به إلى عمق القبو، وهناك دام غيابهما دقائق معدودات ليعود بوعلي وهو يعالج فتحة سرواله يغلق أزرارها. وقبل أن يظهر فتحي قام زبانة في حركة خفيفة سريعة، وانسحب بدوره إلى عمق القبو علّه يلحق به. ومن هناك لحق الجماعة صوت احتدام معركة وكلام خشن بين زبانة وفتحي.

كان واضحا أن فتحي قد رفض الاستجابة لرغبة زبانة، فتهجم عليه هذا الأخير وشد بخناقه، وهو يهتف فيه:

- لكنه ليس رَجُلك لتكون له وحده. أنا أصر على وصلتي أيضا!

على أثر ذلك انتفض الرفاق جميعهم محاولين اللحاق بهما على وجه السرعة. ووقف بوعلي حائلا بين المتخاصمين، فساء الأمر زبانة ليطارده قائلا:

- إن كنت تدفع له، فسأدفع بدوري. إني أريد أن أحظى به أيضا، ولا أجد سببا لرفضه!

استفز كلام زبانة بوعلي فلم يتمالك نفسه، وقام يسحب خنجرا كان يحتفظ به تحت ملابسه، وراح يهدده به..

- ما ترغب فيه لن يحصل أبدا، فلا تعاند.. هيا ابتعد عن طريقي أو سأغرس فيك هذا!

وأبى زبانة أن ينسحب أو أن يتزحزح من مكانه، وكان محتقنا ووجهه بلون الدم عندما راح يجابه بوعلي ويتحداه، ويقول في سخرية بذيئة:

- ما سمعت أن "دخلتك" عليه قد تمت، كذلك لم نشاهد العروس تلبس "الطرحة". فهل تم كل شيء في غيابنا وبدون دعوتنا!

- ماذا تقصد يا مأفون؟

- أظن أن كلامي واضح. إنك لست رجُله لتقف بيني وبينه..

هاجم بوعلي زبانة بخنجره، ولوّح به أمامه مرة ومرتين، وكان قد أصابه في الثالثة على مستوى الجبهة وفوق حاجبه الأيسر، وكادت الأمور أن تنفلت لولا تدخل البقية..

- اللعنة عليكم، هل ترومون التنغيص علينا وفقط!

- سيطلع صراخكم إلى الخارج وسنتعرض إلى فضيحة لا محالة..
- وكأنكم تقومون بدعوة رجال الأمن المنتشرين في كل مكان إلى هنا!

على إثر ذلك لزم الجميع الصمت. كانوا قد عادوا إلى أماكنهم وإلى تجرع النبيذ الأحمر الرخيص ولف سجائر الحشيش، ولا بد أن كل واحد منهم كان منشغلا بأفكاره التي لم تخفت بعد وبنواياه المضمرة..

الناقوس 5

مُوَّحد جَابر

المشبوه

رواية

الفصل السابع

الناقوس الضائع

"بأي سلاح عليه أن ينفذ عدالته؟!

تساءل عما كان سلاح الإنسان الأول، ثم نظر إلى يديه وكانتا الوحيدتين اللتين يؤمن بهما، والقادرتان على محو شعوره بالانسحاق وإعادة كرامته المهدرة.

انطلق معولا على أمره غير مفكر إلاَّ في تحقيق العدالة التي صار يراها ويؤمن بها. وفي الخارج داهمه الليل حالكا تآزره السحب مدلهمة ومتماسكة في تصميم كبير؛ ثم لفَّ المكان صمت خارق كسرته ريح مجنونة اندفعت في صفير منذر، وصوَّتت أوراق الأشجار واهتزت أغصانها، وقصف الرعد ينبئ عن غضبة إلهية، أعقبه البرق شاحذا سكينه.. سكين العدالة الناصعة.

لبث وسط الظلمة يتأمل "الفيلا" التي يسعى لاقتحامها ويده تتحسس السكين الذي يحمله معه لأي طارئ. وانتبه إلى الشارع خال ومقفر في تواطؤ عجيب.

لا مجال له ليدخل من الباب الرئيسي، فالإنارة هناك قوية ويمكنها أن تكشفه، كذلك لا يمكنه أن يمد من عمر انتظاره فقد ينتبه إليه أحد ما، وما من خيار بات أمامه إلاَّ أن يتسلق سور "الفيلا"، ويقفز منه إلى الداخل في حركة خاطفة وسريعة.

وثب إلى السور، وشدَّ بقبضتي يديه حافته. وجاهد ليرفع جسده حتى إذا صار أعلاه قفز إلى الداخل، وكمن هناك يسترجع أنفاسه.

ترصد المكان من حوله، وحاول أن يجد منفذا إلى داخل "الفيلا" نفسها، وانتبه إلى باب خلفي نسي مواربا، فتسلل إليه مستترا بالشجر والنبات. وبات في الداخل مؤمنا أن القدر قد صار حليفه ونصيره.

حملق بعيون كعيون القط عبر الظلام، وحاول أن يتبين طريقه محترسا ما أمكنه الاصطدام بأي شيء قد يثير ضجة تلفت الانتباه إليه. ووجد نفسه في صالون كبير وفخم، ورغم الظلام المسيطر استطاع تخمين ما يحوزه المكان من آثار ونفائس. وتركز نظره على لوحة ضخمة تحتل مساحة كبيرة من أحد الجدران، مبروزة بإطار مزخرف بديع، تمثل رجالا ملثمين لا تعرف هوياتهم، ومدججين بكل عتاد الحرب القديمة. يركبون أحصنة جامحة، وينزلون بصحراء جدباء قاصدين وجهة مجهولة. وخمن يحدث نفسه:

– ما الذي يجعل مثل هذه الصورة معلقة هنا!.. ولا بد أن وراءها سر ما!.

ابتسم، وقد تصور أن نصره سوف يتحقق وبضربة حظ واحدة. وقام بتحريك اللوحة وأزاحها من مكانها ناشدا "الخزنة" وما كنزته، ثم ما لبث أن ذاب وتلاشى فأله وهو يجد وراءها جدارا إسمنتيا لعينا. وخمن في قنوط أين تراه يركن مبتغاه!

صعد أدراجا رخامية قاصدا الطابق العلوي. وانفسح أمامه مجاز طويل بأبواب موصدة على الجانبين. وتقدم نحو أول الأبواب. وكاد يقع عندما تعثرت قدمه بسجاد على الأرضية أمام العتبة.

داهمه الخوف لأول مرة. ولبث مكانه جامدا متصنما حتى عاد لا يسمع غير وجيب قلبه الوجل. حينها مدَّ يده وتحسس أكرة الباب؛ وبسرعة دلف إلى داخل الغرفة، وأعاد الباب خلفه يوصده بحس اللّص.

مكتب، كرسي، خزنة، صور لممثلين وفنانين ومشاهير ملصقة على الجدران وفي كل مكان. سرير يشغل حيزا غير هين من الغرفة تنام عليه صبية بقميص نوم شفاف، راح يتقدم نحوها على أصابع رجليه. وعلى الضوء

الشحيح النافذ من خصاص النافذة حملق فيها بافتتان ودهشة وتأمل تفاصيل جسدها العجيبة.

كتم "آه" طويلة كادت تنفلت منه. وكان كمن مسه "ماس" كهربائي فاقشعر بدنه، ثم تصلب بشكل لافت ومثير. ولم يستطع استرداد بصره، ولم يقدر أن يمنع شهوته التي فارت على رغمه. وتاق إلى وصالها وقد استنار ذهنه بفكرة غريبة.. عليه ألاَّ يتركها إلا ومزَّق عذريتها فتكون الضربة مضاعفة بعدما يدنس شرفها وشرف والدها.. وتساءل هل له من الوقت ما يكفي ليفعل بها ما يشاء!.. وتساءل هل يمكنه أن يضاجعها ثم يهب للقيام بما عقد عليه العزم!

انحنى فوقها، ومرر بأطراف أصابعه عليها فشعَّت فيه حرارتها. جسَّها بلين وكأنه يخشى أن يذوب جسدها اللين بين أنامله ويتلاشى فور ملامسته لها. وانتفضت الفتاة مذعورة ومرعوبة وكأنها قامت على أهوال القيامة. وبلا تردد سدَّ فمها بقبضته، وأشهر بيده الأخرى سكينه أمامها..

- كلمة واحدة، وتنتهي حياتك!

وغمغمت الفتاة مفزوعة:

- ولكن، ماذا تريد مني؟

- أن تستسلمي لي. هيا..

كان لا يزال حائرا مترددا مفكرا كيف يقدر المرء على مكافحة مثل هذا الإغراء اللذيذ، وكيف يمكنه أن يقاوم هذا المشهد الباذخ والمعربد أمام ناظريه!

وأمام رغبته العارمة التي انطلقت من عقالها لم يكن أمامه من خيار.. فلا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يتجاوزها..

بدأ في فتح حزام سرواله ونزع ثيابه كاملة؛ فلا يجب أن يثنيه شيء عن جسدها الكافر والعذب. وأذعنت الفتاة له في استسلام وقنوط، وعيناها معلقتان بالسكين الذي يحمله فوق رأسها يهددها به، متوقعة أنه قد ينهال به عليها في أية لحظة..

- ولكن، لا يجب أن تفعل بي هذا! أرجوك..

ما كان لينظر إلى فزعها أو ليهتم بها، وعمل على حسم أي عارض يمكنه أن يقوم في نفسه أمام دموعها. وارتمى عليها بكامل ثقله، وجاهد حتى ينال وطره منها. وقاومته الفتاة، لكنه كان قد تمكن منها..

انغرس فيها بكله، وانتهك أرضها وعمقها وسرها الخفي. وأغمض عينيه وهو يتصيد إحساسا بالمتعة ودَّ لو يقبض عليه سريعا. وتأوه مطلقا آهات ممدودة، مرددا إياها من أعماق حنجرته المختنقة. ولان جسد الفتاة؛ وانتبه إلى أنها قد بدأت تئن في وصلات محمومة. وحدَّث نفسه هل بات يعجبها الأمر، وهل صارت – بدورها– تتلذذ!

لم يستعد وعيه إلاّ بعدما قذف؛ واحتار عندما لم يجدها بِكرا.

ارتد عنها وقد استولى عليه حنق مفاجئ. وهتف:

– كان يجب أن يكون هناك دم!

وأمام بلبلته استعادت الفتاة رباطة جأشها. قابلته بنظرة احتقار، وقالت في ازدراء ونفور وهي تبصق على وجهه:

– ما كنت لأنتظر قوادا مثلك!

ما هي إلاَّ لحظة بسيطة حتى بدأ بطن الفتاة بالانتفاخ حتى صار بحجم بالون ضخم. وهتفت الفتاة تشير إلى بطنها:

– لا بد أني حامل..

وتسارع تنفسه واضطرب. ورد عليها مصدوما:

– كيف يمكن أن يكون هذا حملا!

فكر في تسوية ترضيه. ومدَّ يديه يتحسس عنقها الهش والرقيق. وعندما حاول خنقها أتاه صوت من داخلها يهتف:

– إليكَ عنها..

تساءل هل ما سمعه حقيقة أم أن أذناه قد بدأتا تخدعانه!.. وارتاب من مصدر الصوت فارتد عنها، وهو لا يني يتساءل من أين يكون قد طلع عليه هذا الصوت الذي سمعه!.. ثم هل يكون ما أنصت إليه نابعا من أعماقها!.. هل أخذ الجنين يتكلم من داخل أحشائها، أم أنها روح شريرة تسكنها وتتبع منها!..

شعر أنه وقع في مصيدة لعينة، وأن هناك من يتآمر ضده. وحاول أن يضبط أعصابه والهدوء قليلا. وتأكد أن لا سبيل له للفكاك من هذا الطوق اللعين إلا بالهرب..

تراجع إلى الخلف يبحث عن منفذ، وتعثر بشيء ما فوقع على الأرض. حينها قفزت الفتاة نحو الباب، وأخذت تزعق وتصرخ وتطلب النجدة. واستولى عليه الذعر وتملكته الرغبة في البكاء بعدما اكتشف أن هناك من أجابها وصار يدق باب غرفتها الموصد. وتمنى لو يكون الأمر كله مجرد حلم سيء يكفيه أن يستفيق منه. وحضرته البشرى عندما اكتشف أنه كان لا يزال على مكتبه. ولا بد أنه أُرهِق فنام عليه وعلى أوراقه التي كان عاكفا على تحبيرها، دون أن يشعر بذلك.

ثم أنه عجب، فهناك من لا يزال يدق عليه الباب. ثم أتاه صوت أمه يسأل:

- ما الداعي الى إنارة المصباح على هذا الوقت المتأخر؟.. والله لا أدري ما حاجتك إلى كل هذا! ألا تزال تصر على هبلك، وباق إلى هذا الوقت تكتب؟!.. يبدو أن هذه الأوراق ستتلف بصرك، وسيصيبك العمى ذات يوم!..

غالب كدره، وحاول تجاوز وجع رأسه وألام رقبته. وقام في حركة كسولة وواهنة إلى سريره فارتمى عليه دون أن يفكر في تغيير ثيابه. وبدا أنه نسي حلمه المزعج عندما استغرق في النوم سريعا.."

***

.. وكأن لا فرح جدير به هنا.. وكأنه يلوذ بالوهم في سبيل القليل من العزاء.. وكأنه ليس كباقي الخلق، وأنه من الاستحالات الكبرى أن تهدأ روحه ويحظى ببعض من السعادة!.. أما المتعة واللذة التي يشعر بها في تلك اللحيظات النادرة وأثناء الكتابة، فإنها لا تلبث أن تتبدد كأضغاث أحلام!

إنه لا يزال يجلس إلى مكتبه وحيدا، وكمحارب قديم عائد من الجبهة ليس له إلا رغيه وما يحكيه. تخنقه حرارة ما بعد الظهيرة، ويضايقه أن زوجته نسيته فلم تأته بفنجان القهوة كالمعتاد.

كان قد انتهى لتوه من أحد فصول روايته الجديدة "المشبوه" شاعرا بدوخة بسيطة قبل أن تستوي أمامه مناظر غرفته المعتادة. وحاول البحث عن الاتزان بعد خروجه من عالم وولوجه في آخر، في حركة خاطفة عبر الزمان والمكان. وقد أزعجه الصمت المطبق من حوله، ولكأنه صمت متواطئ مريب يظل يخشاه.

بادر إلى الحركة لكسره.. تمدد، وتكاسل، وحرك جذعه ورجليه، وأغمض عينيه وفركهما بأصابع يديه. أما الهوّة فكان لا يزال يشعر بها لابدة هناك في أعماقه. وتساءل هل سيصير إلى تجاوزها يوما، أم عليه أن يظل يكتب إلى آخر العمر، كمن تحتم عليه أن يجرب المزيد من الانكسارات والعطب قبل أن يدرك أنه يركض داخل دائرة مغلقة لا مفاتيح لها!.. ثم هل سيكون ما يقوم بخلقه إلا رصف للكلمات ووهم ملوَّن وتراجيديا قاسية آخرها حسرة قاتلة!

***

وُلِد وبه إدمان على الكتب. ترعرع في سنواته الأولى، وهو غير قادر على كبح جماح الطفل الذي يلتهب وجدانه كلما لمح كتابا.

كان يقرأ كل ما تطوله يده، ويذكر أنه على سن مبكرة كتب أوّل قصة له. كان التلفزيون يعرض كل يوم اثنين فيلما كرتونيا مطولا، وكان أن عرض مرة فيلما لم ترقه نهايته، فاستخرج كراسة مدرسية وكتب عليها النهاية التي ترضيه. بعد ذلك صار يكتب مقتبسا من تلك

القصص الخيالية والأسطورية التي كان يطالعها، ثم قيد له أوّل تماس حقيقي بالأدب عن طريق صدفة غريبة.

تأخر والده في العودة إلى البيت ذات ليلة، وبقي الفتى بلا نوم إلى وقت متأخر من الليل ينتظره. وعندما عاد أخيرا وجده يدخل وفي يده رزمة كبيرة من الكتب، قال إنه عثر عليها في مكب للنفايات.

تفحص مُوّحد الكتب بلهفة، وأدرك أن معظمها كتب دراسية قديمة لم تعد مقررة، وانتبه إلى كتاب نادر موجود بينها يعود إلى سنة 1889، وهو مخطوط لا يزال يحتفظ به إلى اليوم يحكي حكاية السندباد البحري مأخوذة من ألف ليلة وليلة، ومكتوبة بالخط الكوفي القيرواني والذي اعتاد ملاحظته في كتابة المصاحف الشريفة. وكتاب آخر كان يحمل عنوان "البؤساء" رواية فيكتور هوجو مقدمة بتصرف للناشئين. عندما قرأها أصابته الدهشة وتملكه الذهول. لقد كان الواقع الذي يعرفه مكرسا فيها تماما. يومها تمنى لو يقدر أن يعبر عن مشاعره بتلك الدقة وبمثل ذلك الوصف الملهم، وتمنى لو يصير كاتبا؛ على أن معلمي مدرسته عندما استشارهم لمن يقرأ لم يشيروا عليه بأكثر من بخلاء الجاحظ، وكليلة ودمنة للمقفع وبعض كتابات جبران والمنفلوطي؛ وفيهم وجد أدبا لكنه لم يجد ضالته. وكان له اشتراك في مكتبة البلدية، يحصل بموجبه على كتاب واحد كل أسبوعين. ولأنه لم يكن يعرف من أسماء الكتاب إلا أولئك الذين جادت بهم معرفة أساتذته أو ما كانت تدل عليه الكتب المدرسية فقد تعطل اكتشافه للكتابات الحقيقة التي كان ينشدها، إلى حين رأى مرة أحدهم يرجع كتابا ضخما لا يدري ما الذي استهواه فيه، فقدم لعامل المكتبة على الفور طلبا باستعارته، لكن هذا الأخير رفض بحُجة حداثة سنه ومستواه مقارنة بالكِتاب.

حاججه موحد ودافع عن رغبته في إصرار وعناد حتى نال الكتاب أخيرا. كان الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ "بين القصرين"، ولا يزال إلى اليوم يخال أنه ينظر إلى أمينة وهي تنتظر أحمد عبد الجواد وهو يعود من إحدى سهراته على بسطة السلم وفي يدها لمبة "كاز".

كان ذلك أوّل تماس له مع رواية حقيقية. اكتشف عالم نجيب محفوظ واكتشف في تلك السنة أيضا كتابات وطار وهدوقة وحبيب السايح وديب وبوجدرة الذي اعتبره عرابه الثاني بعد نجيب محفوظ.

إنه يعتبر نفسه واحدا من أبناء جيل نبت في الفوضى. عندما فتح عينيه وبدأ وعيه الأول بالتشكل كانت البلاد تمور وتغلي. لقد أنتج ذلك اختلالا في الإدراك وقاد إلى رجة عنيفة مست اليقينيات والمسلمات لديه. توّلد لديه الشك وتضخم، وتوّلدت على أثره أسئلة قادت إلى أخرى أكبر منها وأعمق، ثم اكتشف حاله على باب الحيرة والتردد والخوف. تراكمت هذه المشاعر مجتمعة لتنفجر في فعل الكتابة، وهو فعل قام للتقليل من فداحة الإحباطات والخسارات وللتغطية على الكم الهائل من الزيف والتضليل الذي تشارك المجتمع والعرف والسياسة على تلبيسه إياه، أو هكذا كان يجيب كلما سُئل عن السبب الذي جعله يحمل القلم، وقد يضيف قائلا إنه لا يزال يعتقد ويؤمن أن الذين حدثت في حياتهم رجات عنيفة وتزعزعت يقينياتهم وأبجديات الأشياء عندهم، والذين دفعوا كرها إلى التساؤل والتشكك والحيرة – هم وحدهم – المنذورون لشيء أعظم والجديرون بأعظم الإنجازات.

كم طرب وسعد وهو ينظر إلى اسمه ونصه يحتفى بهما لأول مرة على صفحات جريدة الجمهورية الأسبوعية. وكانت جريدة تهتم بنشر

إبداعات كتاب شباب. وقد تدرج من كتابة الخاطرة إلى القصة القصيرة إلى المقال على صفحاتها وعلى صفحات جرائد أخرى، كما شارك في مسابقات وطنية، وفازت قصص له في بعض تلك المسابقات، وإن ظلَّ يعتقد أنه جدير بعمل أكبر وأضخم.

الاتجاه إلى الكتابة تعليل للذات.. رفض للواقع.. هروب منه، وانزياح باتجاه عوالم مبتدعة.. محاولة صياغة بديل يقوم مقام الواقع غير الجدير بالثقة.. فِعل يتم على مستويين، الأول عفوي ينشأ عن الميل الفطري، والثاني يقوم على الإدراك والوعي، حيث يصبح فيه الفعل خيارا حرا وعقلانيا يؤسس للتجربة الراشدة ويدعمها. فالعملية الإبداعية أبدا ما كانت شيئا قدريا، لأنه وبدون ذلك الخيار العقلاني الذي يتعزز من خلال التجربة المكتسبة تضيع الموهبة ولا تتطور، كذلك يمكن للانضباط والمثابرة أن ينتجا العبقري.

أيضا لا يمكننا أبدا أن نشيد بقيمة تجربة ما، إلاّ باعتبار أنها قامت على ركام تجارب سابقة، من خلال عملية التأثير التي تمارسها المعرفة السابقة في تشكيل المعرفة اللاحقة. تجربة لا مجال لها في التشكل واكتساب استقلاليتها إلاّ من خلال القراءة والممارسة والاحتكاك، وعليه يمكن اعتبار القصة القصيرة تجربة سابقة له قبل أن يكتشف أنه لا يصلح لها. فهو – وكما يزعم – لا يقدر على كبح جماح الكلمات المسترسلة ولا يعرف الاختصار والإيجاز، وهما عنصران مهمان تقوم عليهما القصة. وفي مقابل ذلك كانت الرواية بما تحتويه من تفاصيل وروح السرد فيها ما يسيطر عليه.

لقد قيد أن يكتب أوّل عمل روائي له وهو دون السابعة عشرة من عمره، وكانت رواية تستوحي من واقعه الشيء الكثير، وكانت تضج

بعواطف مراهقته وشبوبه العاطفي.. ثم إن تلك الحياوات البسيطة التي كان يقوم بخلقها في قصصه، كانت لا تلبث أن تتمرد عليه، وهي تنادي بمساحة أكبر لها، وحتى روايته "قُيد ضد مجهول" تشكلت مادتها الأولية عنده من قصة قصيرة، شخصياتها لم ترض بالحيز الضيق التي وُضِعت فيه، وقامت بالتمرد عليه.

كان ولا يزال معنيا بالتفاصيل الدقيقة، ويمكن اعتبار الرواية عالمه المفضل. ولعلها هي ما مكنه من أن يطلق يديه ويمارس حريته كاملة. فهي الشكل الذي لا يقدر أن يحوطه أي تعميم ما دامت قادرة على احتواء كافة الأساليب التعبيرية الأخرى. وهي الشكل الأدبي الوحيد الذي لا يقوم على القواعد أصلا.

لا يزال يؤمن أن بإمكان العاشقين والمبدعين والكتاب الانتصار لأحلام الفقراء والمضطهدين ولقيم الحرية والإنسانية، وأن يحرروا التاريخ الإنساني من سطوة السياسيين والطغاة والقتلة الذين ما فتئوا يعملون على إجهاض هذه الأحلام. وكان قد انتهى من أوّل أعماله الروائية على حالة من الإجهاد وعلى نفس مختنق وعلى حلم – وهم أن يطلع معه بالشكل الذي كان يريده وينشده ويرغب فيه بقوة.

برأيه لا تكتفي الرواية عكس الشِعر مثلاَ، أن تثير السؤال أو أن تعكس الحيرة. إنها وأمام هذا العالم المليء بالفوضى وتعدد الأصوات تجد نفسها أمام حقائق مريبة لا تحتمل الصِدقية وإن كانت تحتمل الاختبار، فهي عمل مجهد ومحاولة مضنية لاستعادة الجواب عبر البحث عن اليقين المحتمل. ولا زالت أذنه تضج بجملة لـ "يوجين يونسكو" عندما قال على لسان حاله: "صرت كاتبا لأنني لم أقدر أن أكون

قديساً". يومها تساءل هل حقا يمكن أن يحصل ذلك، ثم تحديدا تساءل هل يمكن أن يحصل معي ذلك؟!

كان يجد نفسه بلا حول ولا قوة وهو ينظر متمعنا في هذا الواقع، والذي هو في الأصل يتشكل من خليط متنوع وهجين وفوضوي، لا تستطيع قياسه أو صبره أو الوقوف عليه، حتى إذا جربتَ وفعلت عدتَ لا ترغب إلاّ في البحث عن السلام الداخلي وقد انتفى فجأة في غمرة البحث.

لن يخلص لك الواقع إلاّ إذا مكنت من العصا السحرية، ولأن عصر السحر ولى، فليس لك من معين أو أمل، ثم جاءت جملة يونسكو كحل أمثل لكل معضلاته. من يومها – ويذكر هذا جيدا – صمم أن يكون روائيا مهمته إيجاد الأجوبة حول كل ما يعتريه ويشغله ويدور حوله، مقتنعا أن مهمة الروائي الأولى تقوم أساسا على إضفاء بعض النظام على هذا الاكتساح الذي تنتجه الفوضى، وأن يحاول جعل الحياة محتملة وممكنة حتى من خلال اللامعنى ما دام لا يحركه إلاّ العقل الإنساني والذي يعنى بالاستقصاء والتجريب وتقديم النتائج والتي هي بدائل محتملة وليست بالضرورة اليقين. وكأنه قد كلف بمهمة إنقاذ هذا العالم.. ثم ألم يكن الروائيون كذلك منذ ما ظهرت ووجدت الرواية.. ثم ألم يكن هذا ما تطلع إليه "سرفانتس" وهو يجابه طواحين الهواء!

ومع ذلك هل انتهى إلى الطمأنينة التي كان ينشدها بعد انجازه لروايته الأولى، وهل وجد الرضى الذي كان يبحث عنه!

لقد أراد أن يقول في أوّل أعماله كل شيء، واكتشف – مصدوما ربما – أن لسان حاله لم يقل شيئا. وغير معترف بالخسارات وغير

مرتهن للهزيمة وجد نفسه مصمما على إعادة التجربة من جديد. ومتأكد أنه سيكتب مرة أخرى وثالثة وعاشرة راغبا كل الرغبة في أن يطلع معه ما يريده، وإن كان على شبه يقين بأن ما يحلم بكتابته صعب، إن لم يكن يقترب من المستحيل.

***

قام إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجان قهوة يُعدِّل به مزاجه، وعندما مرَّ بالبهو اكتشف أن حماته "عيشة" ببيته، ووجد نفسه مجبراً على تحيتها، فتقدم إليها ومدَّ يده بالسلام دون أن تنطق ملامحه بالترحيب أو بالرضى.

تحرجت زوجته من الطريقة التي لاقى بها أمّها، فلم تكن تلك المرّة الأولى التي يعاملها فيها بمثل هذا البرود غير المبرر بنظرها، وأما الحماة فقد شعرت بالإحراج، وقالت تبرر زيارتها المفاجئة:

- كنت عند قريبة بالجوار أبارك لها بعدما رجعت من أداء مناسك العمرة، وقلت لأعرّج عليكم فأسلم وأرى الأولاد..

لم ينتظر حتى تنتهي من كلامها، فلم يكن له شأن بها، والتفت يدخل المطبخ غير مهتم، ولحقت به زوجته قلقة، وفي المطبخ قابلته بعينين محتقنتين بالدمع، وقالت بنبرة متذمرة:

- هل يمكنني أن أعرف السبب في انعدام اللّباقة وسوء التصرف مع أمي؟

ارتبط بزوجته "وهيبة" عن حب، وكان يعتقد أنها من ستناوله السعادة، فإذا به يجدها تسحبه إلى الموت. لم يكن هناك ما يمكنه أن يقوّض حياته إلاّ التفاهة والابتذال، واعتقد أنه خُدع فيها عندما

وجدها سطحية ومن النوع الفارغ عكس ما ظهرت عليه في أوّل تعارفهما، وكثيرا ما تساءل عن سر البلوى التي أصابتهما، وكيف انتهيا إلى الحالة التي صارا إليها وكأنهما غريبين تحت سقف واحد؛ وحاول أن يصلح الخلل دون جدوى.

انتهى إلى لامبالاة كاملة في وضعه معها، ولهذا لم ينظر إليها وهي تواجهه بكلامها، ولم يهتم إلاّ بصبّ القهوة في فنجانه..

– أنا في بيتي، ومن حقي أن أتصرف على طبيعتي!

وتَّرها كلامه أكثر، فقالت في غضب حقيقي:

– لكن هذا لا يمنعك من أن تعامل ضيوفك ببعض من الاحترام اللازم!

– أعتقد أنه على الضيف أن يستأذن قبل كل زيارة، وإن كانت أمك قد استأذنت ولم تخبريني، فالذنب ذنبك.

– حسنا، ليس وقت هذا الكلام الآن..

– نعم، جيد. اِلحقي بأمك إذن!

غادرته وهي تحدجه بنظرات حادة وغاضبة؛ أما هو فكان يحاول أن يتجاوز قلقه..

لم يكن مستعداً أن يتنازل أو يغير رأيه في المخلوقة – عيشة– فهو يعتقد أنّ لها نصيب وافر في سوء الفهم الحاصل بينه وبين زوجته، ثم إنه كان لا يحب أن يباغته أحد بالزيارة ولو لطارئ، وحتى أصدقاؤه كان يتحلل منهم عندما يجدهم يفعلون. كان يرى في ذلك اعتداء سافرا على خصوصيته وانتهاكا لوقته ولآداب السلوك العام.

حاول أن يستمتع ما قدر بقهوته، ثم قام يستعد للخروج. وفي الخارج، وبينما كان يتجاوز مدخل العمارة إلى سيارته من نوع "رونو–

كليـو" المركونـة بـالجوار، انتبـه إلى سـيارة بيضـاء مـن نـوع "بولـو – فولسـفاغن" تفرمـل عنـد أقدامـه على طريقـة الأفـلام الأمريكيـة، وعلى نفس الطريقة اندفع بعض الرجال يقفزون خارجها، وما هي إلاّ لحظة واحدة حتى وجد نفسه مطروحا على الأرض وذراعاه مقيدتان خلف ظهره. قاموا بعد ذلك بحمله وسحبوه إلى داخل السيارة التي عادت فزمجرت ثانية وراحت تقلع من جديد إلى وجهة غير معلومة.

لقد ظلَّ طول الطريق يهتف: "ماذا هناك؟!"، لكن لا أحد اهتم بالرد عليه. وفي مركز الشرطة عاملوه كشخص أدنى ولم يهتموا بشأنه ولم يحترموا فيه لا دهشته ولا حزنه، وظلوا يطاردونه ويمطرونه في فظاظة بأسئلة غريبة لم يستوعب أغلبها، ثم من الطريقة التي عاملوه بها ومن خلال ربط أسئلتهم ببعضها عرف أن مريم قد ماتت، ثم أدرك أنها لم تمت ميتة طبيعية وقد تكون قتلت، ثم استوعب أنّه متَّهم بقتلها لعلاقته بها.

حينها بدأت الغشاوة بالزوال عن عينيه تدريجيا، وتمكن من أن ينشج باكياً، وشعر أنّه صار حانقاً على الفتاة بعد موتها أكثر مما كان حانقاً عليها وهي حيّة. وبينه وبين نفسه ظلَّ يردد: "كنتُ أعرف أنك الورطة التي لن أخلص منها ما حييت. ومهما حاولت الابتعاد عنك أجدك تعودين، وها أنت تسحبينني إليك رغم أنك صرت ميتة!"..

***

تعرف عليها قبل أكثر من سنة، عندما عرج على أحد المحلات التي تقدم المأكولات السريعة إلى جانب القهوة. وكان يشرب قهوته على مهل، مستغرقا في أفكاره الخاصة عندما انتبه إلى فتاة تستأذن في الجلوس إلى طاولته لامتلاء جميع الطاولات في المكان.

يومها كان خارجاً من الجامعة أين قدم لروايته الجديدة "قُيد ضدَّ مجهول"، وما رابه عدد الحضور الهيّن، وكأنه لم يعد هناك من يحفل بالأدب أو يقرأ، وما أزعجه حقاً قول أحدهم له وهو يربت على كتفه وكأنه يواسيه: "إننا معك نساندك"، وكأنه كان يراه يعيش نكبة أوجبت تعاطفه!

واقعة الجامعة جعلت أفكاره القديمة تعود إليه ممزوجة بقرف زيادة. فلطالما كان يرى الوضع هكذا.. تصدر للكاتب في بداياته باكورة أعماله فتغمره السعادة وتتولد لديه الأحلام، ويمني نفسه بأن يصير نبيا أو فاتحا، وتصبح "نوبل" تتويجا ممكنا لن يرضى بأقل منه، حتى إذا تقدم في حقل الكتابة الملغوم وأدركته أوّل العثرات وعرف طعم الخيبات، أشفق على أحلام الشباب فيه، معترفا أنها كانت أحلام يقظة مسكينة.

إن الكاتب المتوسط – برأيه – في منزلة بين المنزلتين.. لا هو مبدع مكرس ومركزي جديده في وقعه أشبه بالزلزال، تحتفل به وسائل الإعلام، ويحتفي به النقد، ويتطلع الجميع إلى نِتاجه؛ ولا هو مبدع هامشي مغمور يسكن الظل، لا يباركه أحد، ويعبر جديده في خفوت كأي شيء لم يكن..

كاتب عالق، وما بين الهاوية والارتقاء تظل روحه سادرة بلا مستقر، ضائعة في أتون الجحيم. يصب جام غضبه على نفسه أو على قدره، مخمنا فيما يشكل الفارق اللعين، وإن كان أكثرهم وعيا بأسباب نجاح أي إبداع. وهو يرى أن هذا النجاح إن تحقق لا يمكنه أن يُعزى إلى التقنية أو اللغة أو الحكاية في الرواية أو المؤلَف الأدبي، بل كل ذلك مشكلا في تركيبة أو بوتقة واحدة، مضافا إليها لمسة المبدع الخاصة، تلك اللمسة التي تفصل فيها الموهبة الحقيقية.

إنه مجبر دائما على بذل المزيد من الجهد. أشبه بدونكيشوت مع طواحينه، عندما تخفت حوافر فرسه وتنقشع الغمامة التي أثارها حتى تمحى الآثار جميعها، ويدرك أنه ما كان يطارد غير الوهم. لا هو حقق النتيجة المرجوة، ولا هو مُنيَّ بالفشل الذريع، ليصير نصه الذي كان يشحذه للقفز على الجراح والارتقاء إلى الفرح وسيلة للنكد وحالة من العبث. فإذا سقط في فخ اللا إيمان واعترف بالعطب فيه صار لزاما عليه أن يبحث عن الشكل الذي ينهي به مساره ويفك من خلاله الطوق الذي يشد عنقه ويقتله في اليوم ألف مرة.

إنه على تلك الحالة كمن لم تكن لديه طموحات يوما، وكمن لم يخض معركة مرة. لم يكسب ولم يخسر. ورغم فعل المناكفة والإصرار والعناء لا يحصد غير انتصارات جانبية خافتة وغير مهمة، لا جدواها تتبدى له ساعة الحقيقة. ومثله عليه ألا يستفيق، فعلى حال يقظته يصدمه الواقع المر والذي لا يشبه الحلم في شيء، وحينها لا بد له من أن يتساءل: فيما يفيده البقاء إذا ما استمر أكثر!

كان لا يزال يشعر بالإحباط لما عاد النادل يضع أمام الفتاة ساندوتش "شاورما" وقارورة ميرندا تفاح غازية. وضبط مُوّحد النادل متلبسا عندما انتبه إليه يرمي بنظره ما بين قميص الفتاة الأبيض ونهديها يريد أن ينظر أكثر من المتاح. نظر نحوه في انزعاج ولما انصرف راح بدوره يتأمل محاسنها، وانتشلته من وضعه البائس نظراتها وهي تتقاطع مع نظراته، ورحب بها عندما وجدها تبتسم له، لكنه لم يدر كيف يبادرها بالحديث فقد يضبط الأمر معها. وكان الوقت ينفذ عندما قرر سحب نسخة من روايته الجديدة، ودوّن على صفحتها الأولى رقم هاتفه.

قدم كتابه لها، وهو يقول:

– أتمنى أن يجد فرصته لديك، وتقرئيه..

قلبت الفتاة الكتاب بين يديها عابثة وكأنها تفعل ذلك لا لشيء، ثم فتحته على الصفحة التي دوّن فيها رقم هاتفه، وبدت على محياها لا مبالاة كاملة وهي ترد عليه:

– لا أظن!

توقع أن تهاتفه في القريب من الأيام على الأقل، وكم كانت دهشته كبيرة عندما وجدها تطلبه بعد ساعة تسأل:

– هل هي صورتك تلك التي على ظهر الكتاب؟

– وما رأيك أنت؟

– أظنها صورتك.

– نعم، هي صورتي..

– أه، إذن أنت الروائي موَّحد جابر، سعيدة بالتعرف عليك. كن واثقاً أني سأقرأ عملك في أوّل فرصة، ومستعدة أن أمنحك رأيي فيه إن شئت..

– يسعدني ذلك كثيراً..

ما أسعده أيضا أن رقم هاتفها صار بحوزته، وأنه عاد بإمكانه أن يطلبها ويتواصل معها متى شاء. وطلبها في تلك الليلة، فلقد كانت الفرصة سانحة عندما لم تكن زوجته بالبيت. تحدثا إلى وقت متأخر من الليل، ثم صارت تلك عادتهما كل ليلة.

أخبرته أنها مطلّقة، وأن الجميع يتحرش بها ويريد أن يدخل معها في علاقة، وأنها خشيت ساعة اقترب منها أن يكون واحداً من الذين يسعون لمضايقتها، وأن ما أحدث الفارق لديها الطريقة التي تعامل بها معها.

وأشارت أيضا إلى بعض المحطات في حياتها، وكان واضحا مما قالته أنها تعتبر نفسها سيئة الحظ. ولا بد أنها عانت كثيرا، ولا تزال تحمل من الحزن واحباطات الحياة الشيء الكثير؛ فصار حذرا، وحاول أن يتجاوز في حديثه معها كل ما يمكنه أن يوقظ فيها أوجاعها وذكرياتها المرّة والهاجعة.

وفي أوّل لقاء جمعهما، سمحت لنفسها أن تركب إلى جانبه في سيارته التي أقلع بها باتجاه "الميناء الصغير"، وهي بلدة صغيرة تبعد عن المدينة حوالي خمسة وثلاثون كيلومترا، معروفة بشاطئها الجميل والهادئ، وهناك أمام البحر كان للسعادة أن تغمرها..

دون أن تداري دهشتها وفرحها هتفت تقول:

- هذا ما كنت أنشده تماما. كنت أشتهي أن يصطحبني أحدهم معه إلى البحر. هنا أشعر أني تحررت. لكم أنا ممتنة لك حبيبي..

هل صار فعلا حبيبها! وهل يمكن لهذا أن يحصل بضربة واحدة وبهذه السرعة المجنونة!

أذهله سماع ذلك، وأطربه كلامها، وأمكنه أن يشعر بغبطة لا حد لها. وبلسان الشاعر فيه أمكنه أن يحدثها قائلا:

- قضيت حياتي كالرحالة. لا شيء في زوادتي غير التعب والحزن بعدما استعصى علي الفرح، ثم ها أنذا بالصدفة ألقاك. وعندما حضرتِ جئتِ محملة بالفرح.. أنا اليوم أدرك أنك هبة كاملة من السماء وحلم إذا ما فرطت فيه يصعب علي تعوّيضه، ولهذا فآخر أمنياتي الآن ألا أستفيق من هذا الحلم الجميل..

في ذلك المكان شعر بها تقفز على تعبها وجراحاتها وخذلان الحياة لها، وتتجاوز تيهها وضياعها، وتبدو كطفلة شفافة من الكرستال تأمل في الحياة وتتوق إلى الحب.

إنها ستكون ممتنة وراضية ولو بنفحات بسيطة من الحب، وستكفل لها مثل هذه اللحظات العودة من منافيها البعيدة؛ والحياة ليست قاسية دائما كما كان كلاهما يعتقد.

شعر برغبة كاسحة تدعوه إلى امتلاكها فشدها إليه في عناق طويل، وود لو يظلا معا وفي حضن بعضهما البعض فلا يفترقا. ومرت بذهنه فكرة أطربته.

لن تخذله هذه المرأة في يوم من الأيام، وستظل على بند الوفاء وممتنة له طوال حياتها لأجل ما يمكن أن يمنحها إياه. وهمس لها في أذنها يقول:

– ها أنذا بدوري أتعلم معك أن الفرح ممكن، وأن الحياة تستحق أن تعاش..

***

خلال عودتهما وفي سيارته مدَّ موحد يده إلى مريم يحاول أن يتحسسها. قام بذلك مغامراً ومتوقعا أن تصده، لكنه اندهش عندما وجدها تستأنس له. حينها فكر أن يتمادى أكثر، وسمح ليده أن تقترب من الأماكن المثيرة لديها، وجسّها فلم تظهر أي ممانعة. وأدرك أن نِيّته في الفوز بها كانت توافق رغبتها، وأن ما كان يريده منها لم يكن يختلف عن الذي كانت تخطط له بدورها، وألهمه ذلك، فركن سيارته على جانب الطريق، وهناك تمكنا من أن يتعانقا طويلاً ويتبادلا القبل

بعنفوان وحس شهواني عامر. وجعله ما حصل يفكر في الحصول على شقة تجمعها سريعاً.

اتصل بصديقه فيصل الذي لم يبخل عليه بمفتاح شقة بحي صلامندر تعود في الأصل لأخيه المغترب في فرنسا، وهناك اقتحمها كما يليق، أو هذا ما تصوّره، لأنه بعدما قذف فيها للمرّة الثانية اندهش أنها راحت تطالبه بالمزيد وكأنها لا تزال على العتبات الأولى للشهوّة، ومبدية اهتياجاً كبيرا أقلقه واستفزه إلى الدرجة التي جعله يفكر في شكل آخر من العبث معها.

قام بقلبها على ظهرها، وعندما شعرت أنه يحاول اقتحامها من الدبر راحت تسحب نفسها، وتهتف: "لن أسمح لك بذلك، أيها المجنون!"؛ لكنه قام بشدّها بعنف من شعرها يلجمها وحاول دفع عضوه داخلها قصراً، وما هي إلا لحظة واحدة حتى توقفت كل دفاعاتها، واندهش عندما وجدها تنظر إليه مادة لسانها خارجاً في حركة داعرة مطالبة إياه بأن يستمر وأن يندفع أكثر.

أخبرته بعد ذلك أن السبب طلاقها من زوجها إصراره الشديد على أن يأتيها من الخلف. لم تناوله ذلك قط وظلّت ترفض في كل مرّة، فكان يثور ويقسو ويضربها أحياناً؛ أما هو فله أن يفتخر ويزهو ما دام أنه الوحيد الذي ناولته ذلك. ما قامت به هذه المرّة كان لأجله فقط. لم ترضخ له إلاّ تحت طائلة إلحاحه الشديد، وإن كان الأمر قاسياً عليها، فإنه لم يمنعها من أن تتلذذ وأن تشعر بالنشوّة وتبلغ قمة الذروّة وأن تقذف. وحتما أن هذا الانحدار كان يلذ لها وإلا فكيف انتهت معه إلى أن تفعل ذلك دون إنزعاج يُذكر!

تكفلت بإشباع شهوته الجسدية، وكان قانعاً باللّذة التي كانت توفرها له، وكان يبدو معها سعيداً وراضيا ومع ذلك لم يكن مستعداً لأن يقدم أي تنازل لها، أو أن يرى طوبة واحدة تنزل عليه أو تتهدده، ثم شعر بالصدمة يوم وجدها في صحبة آخر.

واجهها فلم تنكر، وكانت ملامحها وكأنها لأخرى لا يعرفها عندما قامت تنظر إليه بتحد:

– يريد الزواج منيّ، فهل كنت لتقبل أنت!

وهتف مذعوراً:

– ماذا تقصدين؟

– لا أدري ما الذي يمنعك من الزواج بي!

وجم..

لن تكون إلا امرأة عابثة، ثم كيف سمحت لنفسها بأن تتعرف على آخر وهي لا تزال في صحبته، وفي اللحظة التي كانت تدعي فيها أنها تبادله الحب!

كثيراً ما تأملها دون أن يصل إلى يقين مطلق بشأنها، فمرّة كانت تظهر له بمظهر العاشقة، وأحيانا كان يراها مجرد فتاة عابثة، ومرّة ثالثة كانت تبدو له عاهرة كبيرة وفاحشة لا يكفيها رجل واحد. ولا شك أنها كانت تفضل عيش سلسلة متتابعة من العلاقات غير عابئة إلاّ بالجذوة المستعرة فيها، وربما جاء طلاقها من زوجها نتيجة اكتشافه لخيانة ما، وعكس ما صرّحت به، بدليل أن حضانة طفلها لم تكن مكفولة لها، بل كانت مكفولة لزوجها؛ ولم ير في حياته أماً تفرط في حضانة وليدها. ومن صالحه أن ينبذها على الفور، وأن يقطع كل صلة له بها.

***

ما الذي يمكن أن تقدمه أزهار الجيرانيوم وهي تقوم في هذا المكان بلونها الأحمر الفاقع!

ألأنها بلون الدم أمكنهم أن يضعوها هنا!

لكم كانت تبهجه هذه الأزهار في الماضي. إنها أزهار "خديجة المهبولة" كما كان يحلو لجدته أن تسميها؛ ولقد كان حوش بيتهم مزدهر بها.

كانت ضوضاء الشارع قد بدأت تغزوه من جديد بعدما عزّلته تلك الجدران الرطبة والصماء لعدّة أيام.

خرج بجسد هالك وروح فاترة وقلب حزين متألم وذهن خال مستسلم، وأما الأحلام فقد باتت كالبيت المهجور، أو أنه من عاد خِربة غير مرغوب فيها، فهجرته الأحلام.

ليس له غير الأحزان تثقل عليه، وهزائم الدهر كلها شُدّت – على حين غرّة – إلى كاهله الذي لم يعد يقوَ على الصمود أو حمله لأبعد من قدميه، وإن كان يرغب في شيء، ففي وتد يشده ليبقى واقفاً منتصباً إلى حين.

لم يصدّق خبر إطلاق سراحه، وكأنه كان يعتقد أنه سيبقى في السجن الاحتياطي إلى الأبد، ثم ألم يكن بطبعه خوافاً ميالاً إلى التشاؤم، ويعمل دائماً على تضخيم وتهويل الأمور من حوله!

إن الفرح بالإفراج عنه ما لبث أن تضاءل وهو يحاول أن يحدس ما ينتظره في الخارج، كذلك يقولون الخروج من الحمام ليس كالدخول إليه.

يوّد لو يقدر أن يغوص ويضيع وسط المدِّ المتلاطم من حوله فينسى، ثم كيف يتمكن من النسيان وتجربة الحجز قد عرّته أمام نفسه،

وقد كان من قبل يصر على الهروب من عالمه إلى مرايا لم تكن تقدم إليه إلاّ الصورة التي يشاء وترضيه.

يجاهد نفسه أخيراً فيتمكن من السير، ويخطو مقتنعاً أن لا رديف له غير الألم وهو يصبُّ في كأس الاغتراب، وغير خيبة يتأجل البث في مصيرها لبرهة من الزمن، جازماً أن أمره قد بات محسوماً، وأنه لن يقنع بغير مخدع دائم ونومة لا يصحو من بعدها، فما عاد يصلح شيء أمام ما يشعر به من تعاسة مفرطة!

***

تلطخ وجهه بالعار وقُضيَ الأمر..

لن يقدر بعد اليوم أن يواجه نفسه، وسيبقى يخشى الوجوه الشامتة والساخرة، وهي تشير على الشامة الموسومة بها ناصيته، ولم يبق له من طريقة للخلاص إلاّ بأن يدفن برأسه في التراب.

ما الحياة إلاّ مصيدة لعينة تبدّلت قطعة الجبن فيها، وصارت بمرور الأيام أي شيء أدنى.

كان كارها لهذه الحرية التي منحت له، حائرا ماذا يفعل بها!

لقد جعلته تجربة الحجز عارياً، وفتحت فيه جراحاً أكثر اتساعاً وغوراً، ولا يظن أنه سيشفى منها في القريب العاجل، كذلك غيّرت من علاقته بالمسلمات لديه، وكان لا يني يتساءل كيف يجابه هذا الانحدار فيه، وخمن ماذا يفعل حتى لا يقع في الفخ مرّة أخرى.

جلس في أوّل مقهى صادفته. وجدها غاصّة بالرواد، وكان جلّهم مجتمعين حول التلفزيون فاعتقد أنهم بصدد مشاهدة مباراة في كرة القدم، ثم عاد فانتبه إلى أنهم يتابعون نشرة الأخبار، ومن الصور التي

طالعته بها النشرة ظن أن الأمر له علاقة بما يجري من أحداث في تونس وليبيا، لكن نتف الكلام الذي راح يصله من الرواد كان يقول غير ذلك، فجلّهم يتحدث عن الوضع في البلد، فهل قامت القيامة دون أن يدري!

- سياسة البلاد الرعناء هي التي أوصلتنا إلى هذه الحالة من الفوضى..
- لكن هناك من يراهن على الفوضى لأن له فيها مآرب أخرى..
- إن ما يحدث ليس إلاّ اعتداء سافر على الممتلكات، أما من يجب أن نطولهم ففي بروج مشيدّة..
- هذه ضريبة الثورة، وتلك الدول التي ثارت ليست بأحسن منا!
- لقد ثرنا من قبل، فماذا حصدنا غير الخيّبة!
- الشعب لن يرضى بالعيش فاقداً لكرامته. إن هذا كل ما يهمّه..

كم عاب عليهم عدم فاعليتهم وسكونهم، وكان يراهم كالموتى أو أشد. فلماذا لا يتفاعل معهم الآن ولا ينتفض، أم أنَّ عالم الأفكار شيء والممارسة شيء أخر تماما!

ها هي معركة كاملة أمامه تنادي عليه، فليخض غمارها وليرتضي التضحية بنفسه على شرفها فيتطهر ويتعمد ويطلع جديدا كمن ولدته أمّه.

لكنه يهيم في عالم ثان، ولم يكن ينتمِ إلى هؤلاء ليعترف. إن الدموع التي تكتسح عينيه الآن دليل على اِنتكاصته وجبنِه؛ وكان

باعتباره مثقفاً ومسؤولاً أن يكون في الصفوف الأولى، ثم إن شرط وجوده الإنساني ليس غير وهم عندما لا ينتصر لروح الجماعة فيه ولا يصير رهن تطلعاتها. ما يحصل معه موقف رجعي آخر وِفق المعايير الأخلاقية الدارجة، والتي كثيراً ما تشدق بها.

***

رأى أن يخرج من المقهى، وفكر في وِجهة معقولة، وتصوّر أنّه سيكون بحاجة إلى سيارته في كل الأحوال.

كان يقطن حي 05 جويلية 1962 أو "سيتي حرام عليكم" كما سماها الرئيس السابق الشاذلي بن جديد، يوم جاء ليفتتح مشروع بناء أكثر من خمسة ألاف وحدة سكنية، واكتشف أن الأراضي المخصصة للبناء كانت أراض فلاحية بامتياز، حينها نطق قائلاً: "ليست هذه سيتي للاستقلال بل سيتي حرام عليكم!"، ومن حينها درجت هذه التسمية على الحي وصار معروفا بها.

وجد سيارته مركونة في مكانها كما تركها. ركبها وانطلق بها مسرعاً كمن يسرقها خشية أن يراه أحد فيستوقفه. سلك طريق مقبرة "سيدي بن حوّة"، ناشداً الطريق السريع. وما هي إلاّ لحظة واحدة حتى كان يقود سيارته على سرعتها القصوى.

إنه يمقت هذه الأنا ويراها عدوّه، وإنه يكره نفسه حتى بات يعتقد أنه في حرب ضدّها.. وإنَّ جُلَّ ما يضايقه هو عدم القدرة على الإخلاص للعالم الذي اختاره، والحياة تظل مناكفة دائمة ومجهود يضيع غالبه لأجل اللاشيء. عطالة زائدة لا نفع من ورائها ولا رجاء. والعُمر على قصره يفنى في أمور غير جادة وغير ضرورية، وما يتبقى لأجل

الهدف فيسير، وما كان يعزيه في بداية مساره أن يرى نفسه مُخَلِصا أو نبيّاً، وأما الصعاب والأهوال فكان يراها ضريبة مقبولة لما يؤمن به، ثم بان له نجاحه ككاتب بلا معنى!

فأن ينتهي إلى المقولة التي لم يكن ليعتبر بها عندما كان يقولها له أولئك الذين لم يكن يؤمن بهم لضآلة شأنهم، وأولئك الذين لم يمنحهم القدر الفرصة في التعلم والطموح لأكثر من مرتب ثابت وزوجة وبيت، فذلك الخذلان الأكبر، وما وجه التوَّحش فيه إلاّ أنه آتاه من نفسه المتعالية أو الغافلة عندما ظنت أنها تبصر إلى أكثر من المدى الذي يبصر إليه الآخرون.

يتذكر تماما يوم سأله والده، أي وجهة سيختار لمستقبله بعد نجاحه في شهادة البكالوريا. حينها ردَّ عليه بفرح معتقداً أنه آن الأوان ليصل حلمه: "أعوِّل على كلِّية الآداب"، ولأنه درس شعبة علوم تصوّر الآخرون أنه لن يصير إلاّ طبيبا أو مهندسا أو طيّارا، أو على ذلك كانوا يراهنون، لذلك لمحهم ينكسرون، ثم إن والده ردَّ عليه يومها مرتاباً: "لكن الأدب لا يطعم خبزاً!"..

ما كان ليهتم، أو جلَّ ما كان يهمّه حينها أن يعرك الأدب كله ليجعله في جعابه معوِّلاً على إرادته غير عابئ بالوضع المزري الذي وجد الجامعة تغرق فيه.

سعى ليرسخ توّجهه في الأدب، ومنحه كل وقته وجهده حتى صار كل ما عداه غير حقيقي، واعتبر اللَّون الرمادي لونا غير متحزب فكرهه، وتحصن بالمبادئ وجعلها حليفه وجاهر برأيه وحاول الانتصار له، وجاءت جميع كتاباته على هذا الخط، هادفة وذات غاية، فما الذي حصل لينتهي إلى هذه الحال!

يعيش اغترابا على أرض الواقع يعالجه بالكتابة، وكأن في هذا الفعل انتماء يلوذ به.. وكأن في الواقع المفترض الذي يقدمه الوصل الذي يعنيه في مقابل عالم يرفض فيه كلاهما الآخر.. ويضحك، وهو يشعر بالمرارة، ويستفزه حدّ الفجيعة عندما يقرأ تصريحا لكاتب ما يقول فيه، إنه استمتع بكتابة عمله الجديد.. وهل يستمتع الإنسان عندما يضطهد في موطنه ويُطرد باتجاه المنفى.. وهل يستمتع الجندي، وقد ارتهن إلى الجندية غصباً، ثم وهو يجد نفسه يخوض غمار معركة لم يخترها ويريد أن يخرج منها بشرف.. وهل يستمتع من يداوي جراحه بِصب المزيد من الملح عليها.. وهل يستمتع كاتب ما وهو يعري نفسه ويشرِّح همّه ويفضح أناه، ثم – ورغم ما يبذله ويقدمه – يكتشف أنه انتهى إلى اللاشيء، مع أنه يبقى مشدودا إلى ذلك الفعل – فعل الكتابة – بمزيد من الإصرار والعناد، وكأنه مشدود إلى قدر لعين لا فكاك منه.. ثم هل كان يستمتع "سيزيف"؟!..

ها هو ينتهي إلى مقولة والده ويكتشف أن ذلك اللّعين – الأدب – لم يقدم له ما كان ينشده وأنه لا يطعم خبزاً، وها هو يكتشف أن الذين كان يظن بهم ويتجاوزهم كانوا يعرفون ويفهمون هذه القحبة – الحياة أحسن وأكثر منه!.. ويذكر أنه عندما سأل مريم كيف وجدت روايته التي أهداها إياها، أنها قالت:

– كانت ممتعة جداً.

يومها ضج بالفرح، فسعادة أي كاتب لا تكون إلا إذا كان هناك من يقرأ له، ثم لن تكتمل هذه السعادة إلا إذا كان من يحبك قارئك الوفي. وهتف يقول لها في امتنان بالغ:

– ليتني عرفتك قبل اليوم. كان يمكن حينها لأيامي أن تكون عبارة عن سعادة موصولة..

- حقا!

كذلك هتفت مندهشة وهي تلاحظ مقدار غبطته..

وكان للأمر أن ينتهي عند هذا الحد لولا أنه لم يسألها من جديد عن الذي أمتعها أكثر في روايته، فلقد ردت عليه بعد ذلك مختنقة تصارحه:

- وهل هذا امتحان؟!.. أنا بصراحة لم أقرأ إلاّ الصفحات الأولى، وفعلت ذلك بأكبر جهد ممكن. لقد ضجرت منها، ولا أدري لماذا تضيِّعون حياتكم في كتابة مثل هذه الحماقات. أنا أفضل أن أعيش هذه الحياة، على أن أحلم بها!

كان يروم تغيير الحياة التعيسة التي يحياها، وكانت حياته في الأصل سعيا دائما ورغبة حثيثة لأجل إحداث تغيير منصف في وضعه، على أنه كان كلما تحرك إلاّ ووجد نفسه يدور في الحلقة نفسها ولا يبارح مكانه.

لقد اكتشف أن الحلم وجه آخر للتعاسة، أو أنّه كان التعاسة نفسها عندما لا يشاء أن يتحرر من عقال الوهم الذي يأسره فيتحوّل إلى حقيقة وواقع يتحقق حال اليقظة كما يشاء ويتمنى.

إن الإنسان بغير إرادة القدر المتحيِّزَّة له لن يقدر على الفكاك من سطوة الحياة المجحفة، والموت الحقيقة الوحيدة التي تكفر بكل إدعاء.. لا يذكر لمن هذه المقولة، وإن كان يدرك أن من قالها خَبِرها وهو يواجه يقين الحسم في أمره، وأنه كان يقف حينها على عتبات الانتحار مصمما عليه كخلاص نهائي.. ثم هل عليه – هو – أن يرضى بدور الهزي، منساقا إلى الآلة الإلهية وهي تقوده نحو المسارات التي خططت لها عنايتها، ويكتفي بأن يمد لها لسانه رافضاً عبثها معانداً وغير حافل

بشيء، أم عليه أن يسبقها إلى الخيار المؤجل، فيجعل من الموت خياره الأعظم!

كان لا يزال يقود سيارته، واعتقد أنه يعرف وجهته جيداً؛ بل يمكن القول أنه كان يراها أمامه. وكان يشعر بامتلاء وانتشاء يشبه امتلاءه وانتشاءه كلما فرغ من كتابة ما، عندما أخذ يهتف: "ها أنذا ذاهب معوّل على حتفي، فأرني كيف ستوقفينني أيتها الآلة اللّعينة. أتحداك أن تقفي الآن أمامي في سبيل المزيد من التعاسة!"..

الناقوس 6
لَعْزيز بُوسنَّة

حدثته نفسه: "بُوسْ الكلب مِن فَمه حتى تَدِّي حاجتك مِنه"..
أشعره محدثه بضيق شديد؛ ولولا الذي يرومه منه لصرفه غير مهتم. عليه أن يتحمله ولو على مضض.

- الأمر بسيط. لا تقلق يا سي البشير. سأعمل كل ما في وسعي لتعود لك بضاعتك..
- .....
- لن تتلف ولن تبقى محجوزة، ثق. سأهاتف الآن المسؤول في مديرية أملاك الدولة، وسأسوّي معه المسألة تماما..
- .....
- أنتَ تدري أن لا تعسف في القضية. إنها بضاعة ممنوعة، وقد تم حجزها باسم القانون. فقط اعتقد أنها ستكلفك قليلاً..
- .....
- آه، طبعا. متأكد أن هديتي محفوظة لديك. لكن أنا أتحدث عن عمولة المسؤول الذي سيعالج المسألة. أظنه لن يقوم بأمر كهذا دون مقابل، ومقابل منصف أيضاً. لا صداقات في العمل كما تعلم!
- .....

- ما دمنا متفقين، فلا تقلق. سأكلمك في أقرب فرصة حاملاً لك أخباراً طيبة. وعد..

أنهى المكالمة سريعاً. ما يحدث في المدن الأخرى يسبب له فزعاً حقيقياً وينغص عليه. ينتظر أن تنتقل العدوى سريعاً إلى مدينته. لن ترحمه القيادة إذا ما أبدى اِنتكاصة خلال أدائه لواجبه. يعرف هذا جيداً، ويريد الخروج إلى المعاش محتفظاً بكامل امتيازاته وهيبته. لهذا يبدو عليه التوتر قليلاً.

وأطل السيد لعزيز بوسنة من مكتبه لينادي على البليدة "ليندة" أو هكذا كان يراها. وجدها توليه بظهرها، ومنحنية بجذعها إلى الأمام تقلّب في ملفات بالخزانة. ومن انحناءتها تعرى شيء من أسفل ظهرها. وبان لحمها إلى جانب عجيزتها الضخمة أمراً مثيراً للاهتمام.

توجّه بنظراته الجائعة والجشعة إليها، وانتشى وهو يتأملها بصمت حتى تهيج. واستنفره تهيجه، وبدل أن يتمادى أكثر انتبه إلى وضعه والبؤس الغارق فيه. غضَّ البصر أخيرا وقد اكتفى..

نادى عليها فانتبهت إليه جزعة، وحاولت القيام. وتحملت مشقة كبيرة وهي تحاول تسوّية جذعها المنكسر، وكانت وكأنها تجاهد ضد طارئ ما، ثم أخيراً تمكنت من ضبط حالها وهي تسأل:

- نعم، حضرات!
- أريد رشيد حالاً في مكتبي. وصِليني بقائد فرقة التدخل السريع السي حمو. لقد طلبته مراراً والظاهر أن هاتفه لا يرد..
- عُلِمَ ونُفذ في الحال.

كانت "في الحال" تعني السير بحملها إلى مكتبها، ثم أخذ وضع مناسب عليه، ثم البحث في كيفية تنفيذ إشارات رئيسها

المستعجلة. ولم يكن مثل هذا الأمر سهلاً بالقياس إلى حجمها الهائل وثقلها.

إنها تكاد تكون بلا فائدة وغيرها كثيرات. امرأة ترتدي مثل بنطاله، وتقول أنها ندّ له ومضطر هو إلى التغاضي وتهوّين الأمر وتفويته حتى لا يصاب بالعُصاب. كيف لمثلها أن يكون ندّ له.. ثم من يكون ذلك المدهش الذي فكر أصلاً في إقحام المرأة في سلك الشرطة عندنا.. إلى اليوم لا يقدر أن يستوعب هذا الاتجاه لدى السلطات!

أي صورة نريد أن ننقلها، وما الذي نريد أن نجنيه بعد كل هذا!.. هل ينفع أن نفعل ذلك فقط بدعوى التحديث والعصرنة وكسر الحواجز بين الجنسين!.. حتما أن صاحبنا وهو يقرر ذلك كان معجباً بالأفلام الأمريكية.. امرأة محققة. لكم تثيره الصورة في فيلم أمريكي حتى يكاد يرحب بها. هناك تشاهد النباهة والذكاء والحيوية وحتى الجرأة والإقدام، أما هنا فالأمر مثير للسخرية ويجلب الاشمئزاز!

وليتجنب كل هذا المنظر المنفر، قرر المفوّض العودة إلى مكتبه ليجري بعض الاتصالات بوحدات قطاعه بالمدينة.

انتابته رغبة في التدخين، وكان يحتفظ بأكثر من علبة للسجائر من نوع "مالبورو- لايت" بدرجٍ في مكتبه، رغم أن الأطباء قد نبهوه بصرامة لم يعهدها إلا من رؤسائه المباشرين من مغبة التدخين مجدداً، وأكدوا له انسداد غالبية الأوعية الدموية القريبة من قلبه، وحذروه من الاستهانة بالتعليمات. وكان قد التزم وتقيد بالأوامر بعدما هاله الخطب. فعل ذلك مجبراَ، إلا أنه لم يقو على الصبر لأكثر من فترة بسيطة وعاد يدخن بعدها خفية عن الأولاد والزوجة والجميع. وبدل أن يستخرج علبة سجائره سحب - هذه المرّة- دواءه، وتناول حبة من

"كوردارون" وأخرى من "ديقوكسين" على دفعة واحدة، مانحاً الأولوِّية لصحته هذه المرّة.

حاول أن يستعيد بعض الصفاء، لكن صورة كاتبته وهي على وضعها السابق عادت إليه تطارده.

رغم ذلك ما عادت تصلح لشيء.. هكذا جزم للمرة الثانية. ووجد نفسه يتعاطف مع زوجها. يقينا أنه يهابها، وإلاّ كيف لا يزال يعاشرها بعدما صارت أقرب إلى البرميل.

وانفلتت منه ضحكة ساخرة على رغمه.. لكن هناك من يقدر على معاشرة حتى الأموات، ولعل زوجها قانع بنزوات وصيد يقوم به خارج بيت الزوجية، ثم ما باله هو نفسه قد عاد قانعاً رغم أن زوجته "الحاجة مليكة" بدورها لم تعد تصلح لشيء منذ فترة طويلة وخصوصا بعد إصابتها بالضغط والسكري!

وعنّت على باله الفضيحة التي تعرض لها على يد مليكة. كان قد صارح أحدهم بالوضع الذي أصبح يعيشه في البيت، فأشار إليه هذا الأخير بأن يجرب الزواج العرفي.

لا يدري إلى اليوم من أطلع زوجته على الخبر. لقد نزّلت بسمعته الأرض وجعلت منه مهزلة بين الأولاد والجيران. ويذكر كيف صار من يومها طائعاً وطيِّعاً ومؤثراً للسلامة، كذلك لا يظن أن ليندة بالسهلة رغم ما تبديه.

سمع نقراً خفيفاً على مكتبه، ودخل رشيد أخيراً.

شدَّ بيده اليمنى إلى رأسه وضرب كعبيه ببعضهما، وهو يلقي بالتحية العسكرية.

- هل طلبتني حضرتك؟

- نعم، تفضل وأغلق الباب خلفك..
- تحت أمرك سيدي.

وفكر المفوّض أن يدخل إلى صلب الموضوع مباشرة..

- اتصلت بك لأسألك أين وصلت في قضيتك بخصوص الفتاة التي وُجِدت مقتولة في شقتها!
- ما زلنا نتحرى سيدي، وأظننا نقترب من الجاني فعلا. فقط أمهلني يومين إضافيين..
- أنت تدري أنه ما عاد هناك وقت على الوضع الحالي، ثم ماذا فعلت بشأن المعتقلين لديك؟
- كنا قد أمرنا بإطلاق سراحهم جميعاً؛ بعدما ثبت أن لا صلّة لهم بالقضية.
- كان يجب أن تفعل هذا من أوّل يوم. ما كان يجب أن تعتقل كل من هبّ ودبّ!

حاول المحقق أن يدافع عن وجهة نظره القائلة بأنه كان بصدد البحث عن أي خيط في القضية الملّغزة، لكن رئيسه ردّ عليه في حزم:

- وهل كان ذلك يستدعي أن تعتقل والد الفتاة مثلاً!.. لقد كنت سادياً فعلاً وأنت تفعل. أمثالك يزيدون الطين بلّة..
- ماذا تقصد سيدي؟
- أقصد أني لا أريد تلاعبات في الموضوع. الوضع خطير جداً، ثم إنها قضية رأي عام وأنت تثير لنا قلاقل لسنا في حاجة إليها في الوقت الحاضر..

اشتم المحقق من اللهجة التي يخاطبه بها المفوض رائحة شواظ ما..

- إلى ماذا تلمح سيدي، أي تلاعبات تقصد!

نظر إليه بعين ذئب يحاصر ضحيته..

- هناك شائعات قوية تقول إنك متورط في القضية بشكل ما.
- أنا، سيدي؟!

وأبدى المحقق استغرابه التام مما يقوله المفوض. وكان هذا الأخير قد استخرج تقرير الطبيب الشرعي ورماه أمامه..

- ما كان رأيك في هذا التقرير. من أخضعتَ للفحص، هل يمكنك أن تتحدث؟

شيء ما قد تم تسريبه. وبدا كالمحاصر، وحاول أن يستنجد بأي شيء..

- أنا متأكد من أن هناك دعاية مغرضة هدفها النيل مني ومن سمعتي!
- "خَلي البِئر بِغِطاهْ"، ثم دعنا من هذه البروتوكولات ولنتصارح. كنا دائما زملاء مهنة واحدة، وأظننا نفهم بعضنا جيداً..
- نفهم بعضنا جيدا في ماذا سيدي؟

حاول المفوّض أن يأخذ وضعاً أكثر راحة على مكتبه. كذلك شبكَ أصابع يديه ببعضهما. تنفس بعمق، ثم راح يقول:

- ..أفهم أن نبيدَ قرية بكاملها.. أفهم أن نزوّر الانتخابات.. أن نضع رجلاً من غير المؤهلين في مركز حساس.. أن نغرس لنا عيونا في كل مكان.. أن نعتقل تعسفاً، وأن نحصل على بعض الإفادات تحت الضغط والتعذيب.. كل ذلك يمكن أن نقول إننا فعلناه لأجل المصلحة العليا للوطن. لكن كيف يمكننا أن ننظر إلى مثل الشيء الذي قمت به.. إنه قذارة وفقط. هل صار من حقنا أن نغفل عن كل القيم ونترك

الأمور تمر من بين أيدينا بدون مساءلة.. ثم في أي مقبرة حشرت ضميرك يا ولد!

وتأمل في تأثير كلامه عليه..

تململ رشيد قليلاً. لم يتمكن من ضبط نفسه هذه المرّة. لقد بدأت يداه ترتعشان، وزاغت نظراته قبل أن يتمكن من حجبها. إنه يعي جيدا أن المفوض ورغم سنواته الستين ونظّارة الرؤية التي يضعها وشعره الأبيض لا يزال متمكناً في مجاله.

ولم يكن هناك بد من الاعتراف..

- لم أقدر أن أقاومها، ولا أعتقد أن أحداً كان سيصمد أمامها..
- لكنها كانت ميتة!
- ولو.. حيّة أو ميتة، ما كان ليصمد أحد!

بدا وكأنه يرزح تحت ضغط رهيب..

تعرّق، وهو يستعيد صوراً وذكريات قديمة ظنها قد دفنت إلى الأبد. كان متوتراً وحاقداً وغاضباً الآن. لم يعد ممكناً تجاهل الأمر. قذف بكل شيء دفعة واحدة. تخلص من غثيانه وتقيأ أمام رئيسه دون أن يحفل بالأمر أو بنتائجه.. ليحل الطوفان..

- تباً لمن ألهم لي بهذا العمل القاتل. ليكن في علمك، لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يحصل فيها هذا. فعلناها كثيراً من قبل، وأنت تدري..

فعلناها في التسعينات عندما كان الكبار فينا ينتكصون ويخلون الصفوف الأولى لنا نحن المجّندون حديثاً، ويستعملوننا كدروع لهم في محاربتهم للإرهاب. لم يكن لنا حينها ما نقاوم به هذا الرخس. كنا

نعيش خوفنا كباقي البشر، ولم نجد من يفهم علينا. تمردنا على القانون وضد من كان يصدر أوامره لنا وهو يجلس خلف المكاتب المكيّفة.. ضاجعنا النساء والصبايا.. تبوّلنا على الرجال وتغوطنا على وجه كل من كان يقع بين أيدينا أسوّة بهم أولئك الطواغيث، وقلنا لنعش جنونهم لعل ذلك يخفف عنا ويجعلنا نستمر ليوم آخر، وصدقني.. بعدما انتهى كل هذا حاولنا أن نعود إلى كينونتنا السابقة لكننا لم نقدر!.. تورطنا بحيث صار يصعب علينا الآن التراجع. وبدل أن تغضوا اليوم البصر تريدون محاسبتنا. ما يعرّينا يعريكم بالدور، ثم لا يجب أن ننشر غسيلنا على الملأ!..

رنّ جرس الهاتف، فاضطرا لقطع حديثهما المشحون. ردّ المفوض على من يطلبه وتحدث مطوّلاً. وظهر أنه قلق بشأن ما، وبدا عليه الانزعاج..

لقد جعله هذا التافه يقضي وقتا عصيباً، لكن لا يزال ينتظره الكثير. إن المنغصات القادمة أكبر مما يتحملها كاهله لوحده. لقد وصلت التعزيزات الأمنية التي كان يرقبها، وأعلنت وحدة التدخل السريع عن كامل جاهزيتها. وليس أمامه وقت كثير ليضيعه. الأوضاع باتت رهينة الحافة، وأعمال شغب كبيرة موشكة على الوقوع، وما يجري في العاصمة ووهران مربك حقا وقد ينتقل إلى مدينته في أي لحظة.

يجب أن يضمن هذا الباغي إلى جانبه. الوضع يحتم ذلك.. يا أولاد القحبة إني لكم بالمرصاد.

– دعنا من وجع الرأس هذا، وإليك بالحل. التزم به وكفى. الطبيب الشرعي سيكون جاهزاً ليثبت أن سبب وفاة الضحية سرطان خبيث، ولِتُقفل لي هذا الموضوع سريعاً..

تفاجأ رشيد من كلام رئيسه، وخمن أنه ربما يسعى للإيقاع به. كان لا يزال تحت تأثير هذيانه الأخير ومرتبكاً، لكن ملامح السيد لعزيز لا تنطق بغير الانزعاج والقلق، والأكيد أن ما يقلقه شيء آخر تماماً. لا بد أن يكون جاداً في كل ما يقوله.

وقال المحقق يشير إلى نقطة حساسة في القضية:

- لكن ماذا عن الاغتصاب الذي تعرضت له الضحية. لقد طلع ذلك في تقريرنا، ولا أظننا مستعدون لأن ندخل في مناكفة مع الرأي العام، خصوصا ونحن نعيش هذه الأيام وضعاً حرجاً!

ثم خمن قليلاً..

كان قد استعاد رباطة جأشه تماماً، فأضاف كمن بيده الحل السحري:

- سيدي، ما أراه – إذا سمحت – أن نترك القضية مفتوحة. لا أظن أحداً سينشغل بها مع الأحداث الجارية الآن. لا أريد أن يمس قطاعك بسوء، ثم تيقن أنه إذا جرت الأمور بغير ما نرغب فيه أَنَّ في كل زاوية أو منعطف يمكننا أن نضع أيدينا على محتملين يلبسون القضية. حينها لن يكون هناك أحد ليشير إلينا بإصبع..
- هل أنت جاهز إذن لتتولى مسؤولية إدارة الوضع معي. ما لا أتمناه أن يطلع أحد المسؤولين من العاصمة لينغض عليّ ويزعجني. أريد سيطرة كاملة على المدينة. لا أريد شغباً هنا. تكفَّل بالوضع وأعدك بترقية جديدة..
- وماذا عن صلاحياتي؟

- لك كل الصلاحيات اللازمة.
- بما فيها حرية الاعتقال والاستنطاق!
- بما فيها حرية الاعتقال والاستنطاق، ثم من يثبت تورطه ضاجع أمه إن شئت.
- تحت أمركم سيدي..
- يمكنك الانصراف الآن!

كانت الروح قد عادت إليه من جديد..

أجاب رئيسه بنفس الإشارة العسكرية التي دخل بها، وانصرف مزهواً بالثقة الجديدة التي أولاه بها..

- تم المخطوط -

فيما تبقى الأسباب مجهولة
محاولة انتحار شاب بمستغانم

أقدم المدعو (ج.م)، وهو شاب من مدينة مستغانم يبلغ من العمر 35 سنة على وضع حدّ لحياته بتناوله كميات كبيرة من حبوب (ريفوتريل) و(أركزان)، وهي أدوية توصف عادة لمعالجة الأمراض النفسية والعصيبة. وكانت عائلته قد عثرت عليه وهو يصارع آلاماً حادة، لتنقله على وجه السرعة إلى مصلحة الاستعجالات بمستشفى ابن رشد بالمدينة، أين تمكنت المصالح الطبية من إنقاذ حياته. وفيما تبقى أسباب الانتحار مجهولة، فتحت مصالح الأمن تحقيقاً في ملابسات الحادث.

جريدة مورستاغا

2011 – 06 – 13

بعد ستة أشهر من البحث والتحري
قاتل الفتاة (م.أ) في قبضة الأمن

تمكنت أوّل أمس مصالح الشرطة القضائية لأمن ولاية مستغانم من فك لغز مقتل المدعوة (م.أ) 27 سنة، ووضع حدّ للجاني الفار. وتعود حيثيات القضية إلى ما قبل ستة أشهر حيث وجدت الضحية جثة هامدة في شقتها الكائنة بحي 100 سكن بوسط مدينة مستغانم. وكانت المعلومات قد أفادت حينها أن الفتاة ذهبت ضحية تناولها لمواد سامة، ثم إثر ضربة قاتلة على مستوى الرأس عجَّلت بالوفاة، كما أوضح تقرير الطبيب الشرعي تعرض الضحية للاغتصاب حيث لم يكتف القاتل بوضع حد لضحيته بل راح يشبع غرائزه المرضية منها.

وتفيد مصادرنا أن المدعو (ج.م) قد اعترف بارتكابه للجريمة، وأكّد أنه كان على علاقة مشبوهة بالضحية، حيث أقنعها باستقبالها له في مسكنها الخاص، مكان وقوع الجريمة تحت ضغط التهديد بالتشهير بها. كما أكد نِيّته في قتلها بعد قرارها بالانفصال عنه، وهو القرار الذي لم يهضمه حينها. ويبدو أن الجاني كان يعاني من اضطرابات نفسية وعصبية بعد الحادث، وأنه لم يقدر على تجاوز ضغط الجريمة البشعة التي ارتكبها في حينها بدم بارد، فبدأ بالانهيار تدريجياً حتى أقدم مؤخراً على محاولة انتحار فاشلة.

وبعد عرض المتهم على وكيل الجمهورية لدى محكمة مستغانم، أمر هذا الأخير بإيداعه الحبس المؤقت في انتظار تقديمه للمحاكمة بتهمة الاعتداء والقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد.

جريدة مورستاغا

2011 – 06 – 26

مجلس قضاء مستغانم
بينما تنتظره أقصى العقوبة
تأجيل محاكمة السفاح

قرر مجلس قضاء مستغانم في جلسته العادية مساء البارحة تأجيل البث في قضية مقتل الفتاة (م.أ) إلى آخر الشهر الجاري.

وكان القاضي المشرف على الجلسة قد أمر بإحالة المتهم على الطبيب الشرعي للبث في سلامة قواه العقلية قبل النطق بالحكم. وتجدر الإشارة أن المتهم (ج.م) كان قد تراجع أثناء جلسة المحاكمة عن أقواله السابقة، وأفاد أمام الحضور أن اعترافاته قد تم انتزاعها منه بالإكراه والتعسف والتهديد، لكن النيابة العامة وفي تأكيد على مصداقيتها نفت هذا الادعاء بتقديمها تقريراً صادراً عن الطبِّ الشرعي يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن السائل المنوي الموجود على جثة الضحية هو نفسه السائل المنوي للمتهم، جاعلة من إفادته أمراً شكلياً.

وتجدر الإشارة أن النيابة العامة أيضا وقبل رفع الجلسة قد أمرت بتسليط عقوبة الإعدام في حق المتهم بعد اتهامه بالاعتداء والقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، ليؤجل القاضي النطق بالحكم في انتظار تقرير الطبيب الشرعي في سلامة القوى العقلية للمتهم.

جريدة مورستاغا

2011 – 07 – 12

أعيتهم الحيلة فأذعنوا أخيرا وسمحوا لي برؤية النزيل لديهم. لم يقدروا على تجاهل طلبي أكثر مما فعلوا بعدما وجدوني مصراً عليه في عناد يستحق اللعنة!

لم أكن قادراً على نشر المخطوط دون أن أبحث وأسأل عن صاحبه. وكان أوّل مكان طرقته، جريدة "مورستاغا". سألت هناك عن صاحب تلك المقالات الثلاث التي وردت في بداية المخطوط، وعرفت من رئيس تحرير الصحيفة أنها كانت تخص صحفياً مبتدئاً كان تحت التمرين، لا يَذكر اسمه. لم يظهر كفاءة عالية – قال، وتم صرفه مباشرة بعد انتهاء مدّة تربصه بالجريدة. وعندما سألت كيف أستدّل عن شخصه حوّلني إلى فرع المستخدمين، فربما يحتفظون بملفه هناك.

طلبت من رئيس التحرير أيضاً أن يسمح لي برؤية من يكون قد اشتغل معه في قسم الأحداث. لم يبد اعتراضاً، ويمكنني القول إن ذلك أدهشني. لقد وجدته متعاوناً جداً معي وبشكل لافت، أما الصحفي "علي" فقد تذكر اسم الصحفي المبتدئ، وفجر مفاجأة غير متوقعة، عندما أخبرني أن (ج.م) وكان هذا اسمه يكون الآن قابعاً بإحدى المصحات العقلية، وأكد ليّ أنه قد تابع قضيته. وقادني البحث في أرشيف الجريدة مع "علي" إلى تفاصيل مذهلة، لعل أبرزها المقالات الثلاث التي جعلتها في نهاية الكتاب..

تصوّرت أني سأتجاوز هذه المتاهة إلى بوابة الحقيقة أخيراً، وأني سأتخلص قريباً من الدوار الذي لحقني وشغلني لأيام طويلة عندما

اكتشفت أن من أنشده يقبع بِمصّح "فرانز فانون" لمعالجة الاضطرابات النفسية والأمراض العقلية، وعَزمت على زيارته هناك.

أردت أن أقف ولو للحظة أمام هذا الذي يسمونه مريضا، ورغبت أن أنظر في عينيه، لأتحقق من حجم المسؤولية الملقاة على عاتقي، وهناك بدا طلب الزيارة ومقابلة المريض أكثر تعقيداً مما تصورت، وكأني كنت أسعى للقاء الرجل الأول في هذه البلاد. لم تخفَ عني نظرات الشك والريبة التي ظلّوا يواجهونني بها، وحتى البواب اعتقد أن له رأي في هذا كله، فصار لا يطيق رؤيتي كلما وجدني متأهباً للدخول إلى المستشفى التي كان يقف على بابها، وصار لا يرد على تحيتي أو يواجهني أحياناً بنظراته العابسة، ويقول لي دون أن أبادره بالسؤال: "يمكنك الرجوع من حيث أتيت. المدير ليس هنا. لم يحضر بعد!".. يقولها وكأنه يطردني، ولولا إصراري على رؤية المريض واستخدامي لبعض الوساطات والمعارف لما قُيّد لهذه الزيارة أن تتم.

كِدت أستسلم لمرادهم وأتخلى عمن كنت أريد رؤيته لولا أنهم رضخوا لي أخيراً. والقول الصَّح، أنيّ غلبتهم بـ "سماطتي" واستماتتي، فبعد استجوابات أشبه بالتحقيق وبعد الإمضاء على محاضر وأوراق عديدة وأخذ ورد دام أياماً سمحوا لي برؤية المريض (ج.م).

على مضض وجدتهم يستجيبون لطلبي، والأكيد أنهم استنفذوا كل حيلهم ووسائلهم في عرقلتي عن عزمي..

قال لي مدير المِصَّح:

– أمامك ربع ساعة، لا أكثر.

وطلب من أحد ممرضيه مرافقتي..

كـان الممـرض في ملابسـه المهملـة والسـيجارة الـتي راح يـدخنها أمامي يمنح انطباعاً مناقضاً عن المصّح الذي ولجته، وعن تلك الصرامة التي عوملت بها.

قادني عبر ممر طويل، ثم توقف أمام أحد الأبواب، وقال لي وهو يهمُّ بفتحه:

– أعذرني مضطر أن أدخل معك. سأقف عند الباب..

ثم وهو ينظر إلى ساعته ويشرع الباب أمامي..

– أمامك خمسة عشر دقيقة، هكذا أشار المدير.

وجدت نفسي في مكان لم أتوقعه..

المكان الذي ولجته لم يكن غرفة مريض كما تصورت، بل حجرة واسعة ضمت ثمانية أسرة، أربعة تقابل أربعة. رطبة، ليس بها إلا كوَّات في أعلى الجدار ينفذ منها نور شحيح، أما ضوء النيّون فضعيف وبائس بحيث لم أنتبه إلى أنه كان مفتوحاً أصلاً.

قال الممرض يسأل، وقد لاحظ اندهاشي وتسمري في مكاني:

– ألم تتعرف عليه؟ إنه هناك. السرير الثاني إلى اليمين!

اقتربت منه. وجدته في حالة ذهول تام. جالس على سريره ويداه ترتعشان رغم أنهما على ركبتيه، وعيناه لا تكادان تستقران على موضع ثابت، واكتشفت أن صفة الجنون تنطبق عليه تماما. حالة من الانفصام التام، وغيبوبة كاملة لا تسمح له بادراك ما يقوم حوله.

رغم ذلك يمكنني أن أقول أيضا إنه لم يكن رجلاً خطيراً، ولم يكن هناك أي داع لذلك الشعور الذي تملكني قبل أن ألقاه.. شعور التوتر والانقباض. حاولت أن أقدم له نفسي، لكنه لم يبد أي اهتمام. وشعرت بالتعاطف معه، وسمحت لنفسي بأن أقترب منه أكثر، وقمت بحضنه.

في موعد سابق، كان الطبيب المختص الذي يراقب حالته قد قال لي بالحرف الواحد: "أخشى حقاً أن يكون صديقك قد تعرض لمؤامرة ما!"، لكنه لم يزد على ذلك حرفاً واحداً. وأغلب الظن أنه لم يكن يريد قول ذلك ووجد نفسه قد تورط، كذلك لم يرضخ لتوسلاتي وأنا أطالبه بأن يفصح أكثر عمّا يساوره. بل هو من ترجاني محرجاً أن يبقى ما قاله سراً بيننا.

أخبرني أن صديقي لم يكن ميالاً للعنف كما يحصل مع غالبية الذين يدخلون المصحات العقلية، وقال لي أنه كان نادراً ما يتواصل مع أحد، وبينما يغدوا أغلبهم إذا ما خرجوا إلى الساحة إلى إظهار استمتاعهم بالشمس والهواء الطلق، كان هو يعتكف إلى نفس المقعد الحجري، ولا يبرحه حتى تتم دعوة المرضى إلى داخل المصحة ثانية.

لم يكن يثيره شيء، وما عاد يثير انتباه أحد، إنه منعزل تماماً وخارج معادلة الحياة وخارج عالمنا..

عندما نبهني الممرض إلى أن وقتي نفذ، وأنه عليّ المغادرة قمت خارجاً، ثم وقبل أن أتجاوز العتبة اِلتفَتُ إلى النزيل الذي زرته لأودعه، حينها فقط لمحته يترصدني بنصف عين، وعندما اكتشفَ أني أنظر إليه عاد إلى نظرته الأولى الشاردة والضائعة، وإلى وضع المريض الذي لا يدرك ما حوله.

لا أدري هل توَّهمتُ ذلك في تلك اللحظة الفاصلة بين طرفتي عينيّ واِلتفاتتي. ووجدتني أتساءل: "ماذا لو كان يستغفلنا جميعاً. يتظاهر بالجنون، ويقوم باستغلالنا!". واستعدت حديثي مع طبيبه المعالج، وفكرت: "ألا يكون وجوده في مستشفى المجانين حماية له. ألم

تكن المصحة خياره، وقد خطط له عقله بحيطة وحذر"، ثم لا أدري لِم تملكني هذا الشعور بحيث أنه قام بإزاحة كافة المشاعر الأخرى.

أعتقد أنه بلغ ما يريده، وأعتقد أنه قام بذلك دون أن يساور الشك أحداً. وكم ذهلت عندما واجهت نفسي بالقول، إني كنت قبل لحظات أقف أمام مجرم خطير وأكبر داهية!.. ثم ما لبثت أن طرحت عنيّ كل هذه الأفكار، وأنا أستقبل الشمس.

في الخارج غمرني النور من جديد، واستعدت ثقتي بنفسي وبحواسي كلّها وأنا وسط العالم الذي أنتمي إليه، لكن ذلك لم يدم طويلاً. لم أفلح في أن أنسلخ تماماً عن عالم المخطوط وصاحبه، ووجدت نفسي أفكر فيه مرّة أخرى. ألم أكن مهووساً به. وحاولت بناء القصة كما تصوّرتها..

لقد اكتشف (ج.م) خيانة (م.أ) له، وعندما واجهها اعترفت له غير مبالية، ثم طلبت منه قطع علاقته بها.

لم يقدر على تجاوز فكرة أن تتخلى عنه تحت أي ظرف، وبدأ يخطط للانتقام منها، وساعده في ذلك معرفته التامّة بأدق تفاصيل حياتها!

دائما ما كان يسعى لتأكيد ذاته وتفوقه أمامها، معتقداً أنه يسيطر عليها، مستمتعا بممارسته لهذا النوع من القوّة عليها، ثم إن الأمر على هذا النحو كان يشعره بالرضى.

واعتقد أنه يملكها، ثم فجأة اكتشف كم كان واهماً. لقد أغرقته – وعلى حين غرّة – في بركة من الوحل، وحطّت من قدره، هو الذي كان يعتقد أنه يرى أكثر من الجميع. الإنسان المتفوّق والمتميز.. إن مبرره في الجريمة الإهانة التي لحقت به والدونية التي شعر بها

عندما حدثته بتركه وخانته مع غيره، وكان يجب أن تدفع الثمن فقام بقتلها.

ثم إن فِعل المضاجعة يبرر نرجسيته وتسلطه عليها، فلقد أراد أن يثبت – ولو لنفسه – أنه آخر رجل سيركبها، والغريب أن الصدف شاءت عكس ذلك، لأن المحقق رشيد كان قد ركبها أيضا وبعده.. كان الإذلال لا يزال مستمراً، ولم تمنعه حتى الجريمة التي ارتكبها. بل كانت الجريمة تدلّ على نفسها وكأنها فِعل بلا قيمة أو معنى.. فِعل زائد ما دامت لم تقدم الحلّ الذي يرضيه.

لقد قادت إلى انهياره، هذا ما فعلته الجريمة. كانت حقيقة واقعة فرضت نفسها بقوّة على شخصيته المهزوزة وغير الحاسمة. هذه الشخصية التي كانت كثيراً ما تجبن عند مواجهتها للعالم الواقعي بفوضاه وتلوذ بعالم الخيال وترى فيه خلاصها. إنّه – وعلى غير العادة– راح ينشد الخلاص في غير العالم الذي اعتاده ومن خلال فِعل لم يهضمه، وأدرك متأخراً أنه تورط، ولم يتحمل، فبدأ بالسقوط..

لقد أتلفه الفقدان، وكان يرغب في أشياء لا يفقدها ثانية، وليعيد التماسك وبناء ذاته من جديد، حاول أن يتمسك بأي شيء يتيح له النجاة.. حاول أن يجد تعويضاً ما.. أن يقيم عالما لا يُفقد فيه شيء ولا يزعزعه طارئ، وتراءت له الكتابة كفعل يتميز بهذه الخاصية، أو هذا ما اقتنع به إلى حين انتهى من كتابة المخطوط.

حينها وجد نفسه أمام أمر مهول وقاض. لم يكن قد تخلص من فوضاه. إنها تسكن داخله، وخلال كل ذلك الوقت لم يفعل غير أن ظل يشيح بوجهه عنها، وانتبه بمجرد ما انتهى من روايته أن الفوضى عادت لتسكنه من جديد، ثم ما لبث أن تساءل عن فائدة الكتابة..

كانت الحالة قد استفحلت هذه المرّة، وكانت أشبه بالوباء الذي يعم الجسد كله. لا علاج لها ولا شفاء منها، وأدرك أن لا قيمة لشيء يفعله وأن لا جدوى هناك!

***

بينما أنا مستغرق في استعادة تفاصيل لقائي بـ (ج.م)، وإعادة تركيب قصة حياته، وجدتُه يقف أمامي. كان يركن على جانب خزنة الثياب في غرفتي.

لا أذكر أني شعرت في يوم من الأيام بمقدار ما شعرت به في تلك اللحظة من خوف، وأنا أراه يظهر أمامي فجأة، وكأنه بُعث من الظلام أو طلع عليّ من العدم. ضوء الغرفة كان مطفأ، وعبر خُصاص النافذة كان ضوء الشارع ينفذ شحيحاً وضعيفاً، فلم أستطع أن أتبين ملامحه. وكنت أعرف فقط أنه هو، المحقق رشيد الأزعر والملقب بـ "السلوقي"، وكان هذا وحده كفيلا بأن يجعلني أقلق وأرتعب.

استعدت صورة صاحب المخطوط، وتساءلت: "هل يمكن أن يكون هذا الشخص الجاثم أمامي الآن هو المسؤول عمّا أصابه؟!"، وتذكرت قول الطبيب المعالج له: "أخشى حقاً أن يكون صديقك قد تعرض لمؤامرة ما!". وانتهيت إلى الجزم بأن كل شيء وارد، وتملكني على ذلك المزيد من الهلع. تصلبت أطرافي، وشعرت بمخالب حادة تنهش أحشائي، وبرعشة في أوصالي لم أقو على لجمها، بينما راح جسدي ينز عرقاً، واختنقت أنفاسي، وأخذت روحي تنسل منيّ هاربة إلى حيث لا أعلم!

لم يشغلني في ذلك الحين إلاّ موضع يديّ المحقق، فقد كان يحجبهما الظلام كلياً، وهو متمسك بالمنطقة المظلمة من الغرفة.

وتصورت أنه يمكن أن يكون يحمل في إحداهما أداة قاتلة، وهو هنا ليجهز عليّ. وبقيت أنظر إليه في ريبة، راصداً كل حركة تصدر عنه، وبقيت أنتظر ميتتي!

قال: – لقد اطلعت على العمل الذي تنوّي إصداره، ولا تسألني كيف؟ فليَ وسائلي الخاصة في ذلك. فقط لتعلم أنك تضعنا بين المطرقة والسندان.. ثم هل تدري مقدار القلاقل التي قد تنجم عن عملك هذا إذا ما قُيد له النشر، كذلك لن نقدر على احتواء الأمر إذا لم نُجوّز نشره. في كلتا الحالتين سنخسر وستربح أنت. لقد كنت داهية فعلاً!

احترت ماذا أقول، أو كيف أدافع عن نفسي!.. خشيت أكثر من مغبة الصمت، فبدأت أناضل ضد الخرس. أخيراً استطعت أن أنطق، وبمشقة قلت:

– إنها رواية وفقط. أدب لن يهتم أحد بالحدود الفاصلة فيه بين الواقع والخيال!

– صَّحْ، هذا ما تقولونه دائماً. على أساس أن كل "رواية" هي "كذبة" تحاول التظاهر بأنها "الحقيقة".. ثم من يتوّقع أن يكون لهذه القصة نصيب وافر من الواقع. الحكاية الحقيقية لا يعرفها إلاّ أنا وأنت!

– وستبقى في بئر.

كنت قد خمنت أن الحقيقة هنا، تختفي خلف كذبة أو رواية. إنها تنشد ظِلالاً لها عبر الوهم. تريد أن تتموّه أكثر، ورغم ذلك فإنها ماثلة تماما لمن يريد أن يرى. فقط، إنها غير مستعدة لتقدم نفسها – وكما تفعل أي عاهرة– لأول عابر سبيل. لن يطالها إلاّ من صبر عليها.

أدرت كل هذا في ذهني، وأنا خائف من أن يقرأ أفكاري، ويتهمني من خلالها. وكنت لا أزال أقف على نفس الدرجة من الريبة والقلق والخوف؛ أما هو فأعقب يقول:

– من يضمن ذلك!.. اللّعنة كل اللّعنة على هذا الأدب الذي تكتبون. إنكم لا تسمحون لنا بالمناورة أبدا.. أنا في هذا أغبطك، وما جئت إلى هنا إلاّ لأنوّه بجرأتك.. لا أعتقد أنك تبغي أكثر من شهرة أدبية من خلال هذا العرض الشيّق. لا أتوقع مناورة منك. لكن تأكد، إذا كان في الأمر لعبة ما سأطلع لك ثانية، وحينها لن أرحمك!

هززت رأسي ألاّ مناورة هناك ولا لعبة، أما هو فلم يبدو منزعجاً وهو يردد عباراته التي وجدتها أشبه بكتلة حديد باردة وصدئة، على أن قطعة الحديد تلك قد راحت تصدر صريراً مزعجاً في آخر المطاف.

لقد أخذ يشدد على مقاطع وحروف بعينها، ويُضمّن كلامه تحذيراً واضحاً وصريحاً. وقبل أن يختفي لاحقني صوته كرجع الصدى: "لن أرحمك"، وأعقب ذلك ضحكة ساخرة ممطوطة تناهت إلى العدم..

***

وقفت في حالة من الذهول، وتسمرت مكاني فترة من الزمن لا أدري إن طالت أو كم امتدت، وعندما انتبهت إلى نفسي وجدت أنيّ غير قادر على تقدير ما حصل معي.

هل كان ما حصل من بنات أفكاري المرهقة والتالفة أصلاً.. هل كان حلماً شاهدته وقد أخذتني غفوة دون أن أنتبه، أو كان شيئاً من أوهامي وشطحات خيالي المعربد..

لم تشغلني هذه التساؤلات كثيراً، فقد رأيت ألا أهتم بها. طرحتها بعيداً، وقمت سريعاً إلى مكتبي لأسجل ما حصل معي. أردت ألا أُضيِّع شيئاً من ذلك.

عكفت على الكتابة، ولم أنتبه إلاّ وأمي تدق باب غرفتي تسأل وتقول:

- ما الداعي الى إنارة المصباح في هذا الوقت المتأخر؟.. والله لا أدري ما حاجتك إلى كل هذا! ألا تزال تصر على هبلك، وباق إلى هذا الوقت تكتب؟!.. يبدو أن هذه الأوراق ستتلف بصرك، وسيصيبك العمى ذات يوم!..

- تمت -

للتواصل مع الروائي
mohammeddjafar@hotmail.fr